أخلاق النبى ﷺ وصفاته

بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى ملكه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله .

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب يصف بعض صفات النبى ﷺ وأخلاقه الكريمة فقد وصفه الله تعالى فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

وقال تعالى فى وصفه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

وقال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾ [الأحزاب]

وقال ﷺ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر» .. الحديث

وجاء وصفه فى التوراة والإنجيل :

قال تعالى : الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعوفون أبناءهم.

تقبل الله منا صالح الأعمال وجعله فى ميزان حسناتنا .

وجعلنا الله من الذين يشفع فيهم النبى ﷺ.

وأخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلــــف

بكر محمد إبراهيم

معرفة الحبر اليهودى

لأو صاف رسول الله ﷺ

عن على بن أبي طالب قال :

بعثنى رسول الله ﷺ إلي اليمن، فإنى لأخطب يوما على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف فى يده سِفر ينظر فيه، فلما رآنى قال : صف لنا أبا القاسم : فقال علي: رسول الله ﷺ ليس بالقصير، ولا بالطويل البائن، وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، هو رجل الشعر أسوده، ضخم الرأس مشربا لونه بالحمرة عظيم الكراديس(١) شئن الكفين والقدمين، طويل المسربة، وهو الشعر الذى يكون من النحر إلي السرة، أهدب الأشفار، مقرون الحاجبين، صلت الجبين، بعيد ما بين المنكبين إذا مشى تكفا كأنما ينزل من صبب لم أر قبله مثله، ولا بعده مثله.

قال على: ثم سكت.

قال لى الحبر : وماذا .

قال علي: هذا ما يحضرنى.

قال الحبر: فى عينيه حمرة، حسن اللحية، حسن الفهم تام الأذنين، يقبل جميعا ويدبر جميعا؟

فقال علي: والله هذه صفته.

قال الحبر: وشىء آخر.

قال علي: وما هو؟

---

(١) ملتقى كل عظمتين.

قال الحبر : وفيه جنا . (إشراف الكاهل على الصدر)

قال علي: هو الذى قلت قلت لك، كأنما ينزل من صبب.

قال الحبر: فإنى أجد هذهر الصفة فى سفر آبائى ونجده يبعث فى حرم الله وأمنه وموضع بيته، ثم يهاجر إلى حرم يحرمه هو، ويكون له حرمة كحرمة الحرم الذى لله، ونجد أنصاره الذين يهاجر إليهم قوما من ولد عمر بن عامر أهل نخل، وأهل الأرض يهود.

قال علي: هو هو، وهو رسول الله ﷺ .

قال الحبر: فإنى أشهد أنه نبى وأنه رسول الله إلي الناس كافة، على ذلك أحيا وعليه أبعث إن شاء الله.

قال: فكان علي يعلمه القرآن ويخبره بشرائع الإسلام ثم خرج علي والحبر هنالك حتى مات فى خلافة أبى بكر وهو مؤمن برسول الله ﷺ مصدق به.

وقال الحسن بن علي - رضى الله عنه - لخاله : صف لى منطقه فقال:

كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم فى غير حاجة طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه يتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافى ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذك منها شيئا ولا يمدحه ولا يقوم لغضبه إذا تعرض للحق شىء حتى ينتصر له.

وفي رواية أخرى : لا تغضبه الدنيا وما كان لهذا فإذا تعرض للحق شىء لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث يصل بها يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، غض طرفه، جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثلي حب الغمام.

قال الحسن:

فكتمها الحسين بن علي زمانا ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه يسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئا.

قال الحسين:

سألت أبى عن دخول رسول الله ﷺ فقال:

كان دخوله ﷺ لنفسه «مأذون له فى ذلك، وكان إذا أوى إلي منزله جزء دخوله ثلاثة أجزاء : جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأه بين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة لا يدخر عنهم شيئا.

وكان من سيرته في جزء الأمة: إيثار أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى ويقول : ليبلغ الشاهد الغائب، أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك ولا بقليل يقبل من أحد غيره، يدخلون عليه زوارا ولا يفترقون إلا ذواقا.

قال : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه فقال:

كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم يوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس، ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عباد لا يقصر عن الحق ولا يجوره،

الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان فقال :

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلي القوم جلس حيث ينتهى به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، ومن جالسه أو قاومه فى حاجة صابره حتى يكون هور المنصرف، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس منه بسطه وخلقة فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن(١) فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين ويوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

قال : فسألته عن سيرته فى جلساته فقال :

كان رسول الله ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه ولا يخيب(٣) فيه، وقد ترك نفسه من ثلاث : المراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا، ولا يعيره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثواب ربه إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى أن كان

---

(١) تنتهك. (٢) تشاع وتذاع.

(٣) لا يسهو فى المجلس .

أصحابه يستجلبونه[1] فى المنطق، ويقول : «إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه[2] ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ[3]، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بانتهاء أو قيام.

قال: فسألته كيف كان سكوته:

قال : كان سكوته على أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكر، فأما تقديره ففى تسويته النظر والاستماع بين الناس، وأما تذكره أو قال تفكره، ففيما يبقى ويفنى، وجمع له ﷺ الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شىء، ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع : أخذه بالحسن، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة ﷺ.

---

(١) يأتون به .   (٢) أعطوه.

(٣) مقتصد.

عظمة وسماحة رسول الله ﷺ

فى كتب أهل الكتاب وأحاديث الأقدمين

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت :

أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة؟

فقال : أجل والله وإنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى الفرقان: ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا حرزا للأميين﴾ ، أنت عبدى ورسولى سميتك بالمتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله وافتح به أعينا عميا وآذانا صماء، وقلوبا غلفا.

قال عطاء بن يسار: ثم لقيت كعبا الحبر فسألته فما اختلفا فى حرف إلا أن كعبا قال: أعينا. وقد رواه البخارى أيضا.

وروى الحافظ والبيهقى بسنده عن وهب بن منبه اليمامى قال: إن الله عز وجل لما قرب موسى نجيا قال: ربى أنى أجد فى التوراة أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله فاجعلهم أمتى.

قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب إنى أجد فى التوراة أمة هم خير الأمم الآخرين من الأمم السابقين يوم القيامة فاجعلهم أمتى.

قال : تلك أمة أحمد.

قال: يارب إنى أجد فى التوراة أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتبهم نظرا ولا يحفظونها فاجعلهم أمتى.

قال : تلك أمة أحمد.

قال: رب أنى أجد فى التوراة أمة يؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاتلون رؤوس الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتى.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد فى التوراة أمة يأكلون صدقاتهم فى بطونهم وكان من قبلهم إذا أخرج صدقته بعث الله عليها نارا فأكلها فإن لم تُقبل لا تقربها النار فاجعلهم أمتى.

قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب إنى أجد فى التوراة أمة إذا هم أحد هم بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد فى التوراة أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلهم أمتى.

قال : تلك أمة أحمد.

وفى هذا الحديث غرابة والله أعلم.

قال: وذكر وهب بن منبه فى قصة داود - عليه السلام - وما أوحى إليه من الزبور.

ياداود: إنه سيأتى من بعدك نبى اسمه أحمد ومحمد، صادقا سيدا، لا أغضب عليه أبدا ولا يغضبنى أبدا، وقد غفرت له قبل أن يعصينى ماتقدم من ذنبه وما تأخر، أمته مرحومة أعطيهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء،

وافترضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتون يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء وذلك أنى افترضت عليهم أن يتطهروا إلي كل صلاة، كما افترضت على الأنبياء قبلهم وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

ياداود: إنى فضلت محمدا وأمته على كل الأمم، أعطيتها ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم.

لا آخذهم بالخطأ والنسيان ، وذنب ارتكبوه على غير عمد واستغفرونى منه غفرته لهم، ولهم فى المدخر عندى أضعاف مضاعفة من ذلك.

وأعطيتهم على المصائب فى البلايا إذا صبروا وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ، الصلاة والرحمة والهدى إلي جنات النعيم.

إن دعونى استجبت لهم فأما أن يروه عاجلا وإما أن أصدق عنهم سوءا وإما أدخره لهم فى الآخرة.

ياداود : من لقينى من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له صادقا بها، فهو معى فى جنتى وكرامتى، ومن لقينى وقد كذب محمدا وكذب بما جاء به، واستهزأ بكتابى صببت عليه فى قبره ثم أدخله من الدرك الأسفل من النار.

وقال الحافظ البيهقى: أخبرتنا أم عثمان بنت سعد بن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيها عن أبيه قال :

سمعت أبى جبير بن مطعم يقول : لما بعث النبى ﷺ وظهر أمره بمكة خرجت إلي الشام، فلما كنت بِبُصْرَى أتتنى جماعة من النصارى فقالوا: أمن الحرم أنت ؟.

قلت : نعم، قالوا: افتعرف هذا الذى تنبأ فيكم؟ قلت : نعم.

قال : فأخذوا بيدى فأدخلونى دارا لهم فيه تماثيل وصور فقالوا لى : انظر هل ترى صورة هذا لنبى الذي بعث فيكم فنظرت فلم أر صورته فقلت : لا أرى صورته فأدخلونى ديرا أكبر من ذلك الدير فإذا فيه تماثيل وصور أكثر مما فى ذلك الدير فقالوا لي : انظر هل ترى صورته؟ فنظرت فإذا أنا بصفة رسول الله ﷺ وصورته وإذا أنا بصفة أبى بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله ﷺ فقالوا لى هل ترى صفته؟ قلت : نعم، قالوا: هو هذا؟ وأشاروا إلي صفة رسول الله ﷺ .

قلت : اللهم لقد أشهد أنه هو، قالوا: أتعرف هذا الذى آخذ بعقبيه؟

قلت : نعم، قالوا: نشهد أن هذا صاحبكم، وأن هذا الخليفة من بعده.

عن هشام بن العباس الأموى قال : بعثت أنا ورجل من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر اجتماعهم به وأن عروقه تنفضت حين ذكروا الله عز وجل : فأنزلهم فى دار ضيافته ثم استدعاهم بعد ثلاث فدعا بشىء نحو الرابعة العظيمة فيها بيوت صغار عليها أبواب وإذا فيها صور الأنبياء ممثلة في قطع من حرير، من آدم إلى محمد - صلوات الله عليهم أجمعين - فجعل يخرج لهم واحدا واحدا ويخبرهم عنه، وأخرج لهم صورة آدم ثم نوح ثم إبراهيم، ثم تعجل إخراج صورة رسول الله ﷺ .

ثم فتح بابا آخر فيها صورة بيضاء وإذا والله رسول الله ﷺ .

قال : أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم. محمد رسول الله، قال : وبكينا.

قال: والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال: والله لهو.

قلنا: نعم إنه لهو كما تنظر إليه.

فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال : أما أنه كان آخر البيوت ولكن عجلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم ذكر تمام الحديث فى إخراجه بقية صور الأنبياء وتعريفه إياهما بهم.

وقال فى آخره، قلنا له : من أين لك هذه الصورة !.

وقلنا : لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء -ر عليهم السلام - لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله.

فقال : أن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلي دانيال،

ثم قال : أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى وأنى كنت عبدا لأشركم ملكه حتى أموت.

قال: ثم أجازنا فأحسن أجازتنا وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - حدثنا بما رأيناه وما قال لنا وما أجازنا قال : فبكى أبو بكر فقال : مسكين لو أراد الله به خيرا لفعل .

ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ واليهود أنهم يجدون نعت محمد ﷺ عندهم.

عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا انتظرت نبيا من ولد إسماعيل ثم من بنى عبد المطلب، ولا أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد برسالته، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت : هلم.

قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله،

وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قوم منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلي يثرب فيظهر أمره، فكل من سأل من اليهود النصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وذاك وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون لم يبق نبى غيره.

قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت النبى ﷺ قول زيد بن عمرو بن نفيل وإقراءه منه السلام.

فرد ﷺ : وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا.

سيف بن ذى يزن

يصف الرسول ﷺ

ومن الأخبار التى وردت وتنبأت برسالة رسول الله ﷺ وتنبأت بعظمة تلك الرسالة وأنها سوف تسود الدنيا من أقصاها إلي أقصاها، جند سيف ابن ذى يزن ملك حمير باليمن، فقد أتاه بعد مولد النبى ﷺ وفود العرب وأشرافها وشعراؤها ليهنؤه بانتصاره على الأحباش، وأتاه للغرض نفسه وفد قريش وفيهم عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ وأمية ابن عبد شمس وخويلد بن أسد والد السيدة خديجة وزوجة الرسول ﷺ في عدد من أهل مكة، فأتوه بصنعاء عاصمة ملكه وهو فى قصر له يقال له غمدان، فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه وهو متضمخ بالبعير يبص المسك من مفارقه.

وعليه بردان أخضران قد ائتزر بأحدهما وارتدى الآخر وسيفه بين يديه، وعلى يمينه ويساره الأمراء وأبناء الأمراء.

فاستأذن عبدالمطلب فى الكلام، وكان أجل القوم قدرا، وأعظمهم خطرا، وأعلاهم نسبا، وأكرمهم حسبا، ولم يكن سيف بن ذى يزن يعرفه فقال : إن كنت مما يتكلمون بين يدى الملوك فقد أذنت لك.

فقال عبد المطلب :

أيها الملك إن الله هز وجل أحلك محلا رفيعا، صعبا منيعا شامخا، باذخا، وأنبتك نباتا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، من أكرم معدن وأطيب موطن، وأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذى به تخصب وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه، سلفك سلف خير، وأنت منهم خير خلف ولن يحمل ذكر من أنت سلفه.

أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بك فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

فقال الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم !

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

قال: ابن أختنا.

قال: نعم.

قال الملك : إدن.

فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال :

مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا، ومناخا سهلا، وملكا وتحلا، يعطى عطاء جزلا، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، قبل وسيلتكم، لكم الكرامة ما أقمتم، والحياء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الضيافة فأقاموا بها شهرا لا يصلون إليه وعليهم الجرايات والصلات ثم أرسل عبدالمطلب وأخلى مجلسه وقربه وقال له :

يا عبدالمطلب إنى مفيض عليك من سر علمى أمرا لا أبوح به لغيرك ولكن وجدتك معدنه فأطلعتك طلعه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إنى أجد فى الكتاب المكنون العلم، المخزون الذي اخترناه وتحققناه وحجبناه دون غيره ضنا به وشحا عليه خبيرا جسيما ونبأ كريما، وخطرا عظيما فيه شرف الحياة وفضل الوفاء للناس عامة، ولرهطك كافة ولك خاصة.

قال : أيها الملك مثلك سر وبر، فما هو، فداؤك أهل المدر والوفود زمرا بعد زمر. قال : إذا ولد بتهامة غلام به علامة كانت له الإمارة ولكم الزعامة إلي يوم القيامة.

قال عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أبت[1] منك بخير ما آب به وافد قوم، لولا هيبة الملك لسألته أن يخبرنى بإفصاح فقد أوضح لى بعضا إلا.

قال : هذا حينه الذي يولد فيه ولد اسمه محمد بين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه، قد ولد سرارا والله باعثه جهارا وجاعل له منا أنصارا، يعزيهم أولياؤه، ويذل بهم أعداءه، ويستبيح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يعبد الرحمن ويدحض الشيطان، ويكسر الأوثان، ويخمد النيران، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله.

فخر عبد المطلب ساجدا.

فقال له : ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست من علمه شيئا.

قال : نعم أيها الملك، كان لى ابن ، وكنت به معجبا، فزوجته كريمة من كرائم قومه، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت بغلام أسمه محمدا، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه بين كتفيه شامة، وفيه كل ما ذكرت من علامة.

قال له الملك : والبيت ذى الحجب إنك يا عبدالمطلب لجده غير الكذب، وأنا الذى قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطو ما ذكرت لك عن هؤلاء الرهط، الذين معك، أنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أتكون لهم الرياسة، فيبغون لك النوافل، وينصبون لك الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلى حتى أجيء يثرب دار مملكته، وأنى لأجد الكتاب الناطق، والعلم السابق، والخبر الصادق أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته، وموضع

---

(١) رجعت.

قبره، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه الداهيات لأوطأت سنان العرب كعبه ولأعليت على صغر سنه ذكره لكنى صارف ذلك إليك على غير تقصير بمن معك.

ثم أمر لكل واحد منهم بمائة من الإبل، وعشرة عبيد، وعشرة إماء، وعشرة أرطال ذهبا وعشرة أرطال فضة، وكرش عنبر، وأمر لعبد المطلب بعشرة أمثال ما أمر لهم وقال له :

ائتنى بخبره، وما يكون من أمره عند رأس الحول.

فما حال الحول حتى مات سيف بن ذى يزن فكان عبدالمطلب يقول لأصحابه :

لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك، فإنه إلى نفاذ، لكن الغبطة بما يبقى لى ولعقبي شرفه وذكره وفخره.

فإذا قيل له : وما ذلك ؟

يقول : سيُعلم ولو بعد حين.

و صف سلمان الفارسى

للرسول ﷺ

يقول سلمان الفارسى - رضى الله عنه -:

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان وكان أبى دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت خادم النار التى يوقدها.

قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة، فشغل فى بنيان له يوم فقال لى : يا بنى أنى شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب إليها، وأمرنى ببعض ما يريد ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلىّ من ضيعتى، وشغلتنى عن كل شىء من أرى.

قال: فخرجت أريد الضيعة التى بعثنى إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدرى ما أمر الناس، فحبس أبى إياى فى بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبى فلم آتها ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟

قالوا :بالشام.

فرجعت إلي أبي وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله فلما جئته قال : أى بنى أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟.

قال : قلت له : ياأبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال : أى بنى ليس فى ذلك خير، دينك ودين آبائك خير منه.

قال : قلت له : إنه لخير من ديننا فخافنى، فجعل فى رجلى قيدا ثم حبسنى فى بيته.

قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم، فقدم عليهم ركب من الشام، تجار من النصارى فأخبروه فقال لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروه بهم.

قال : فألقيت الحديد من رجلى ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمت قلت : من أفضل أهل هذا الدين علما؟.

قالوا: الأسقف فى الكنيسة فجئته، فقلت له :

إنى قد رغبت فى هذا الدين، فأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك.

قال : ادخل.

فدخلت معه وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع.

ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم :

إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا .

فقالوا : وما علمك بذلك ؟

قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه.

قالوا : فدلنا عليه.

فأريتهم موضعه فلما رأوه قالوا: والله لا ندفنه أبدا فصلبوه ورجموه بالحجارة وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

قال سلمان : فما رأيت رجلا كان أفضل منه، وأزهد فى الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه، فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله.

ثم حضرته الوفاة فقلت له : يا فلان إنى قد كنت معك وأحبك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنى .. والله ما أعلم اليوم أحدا علي ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان على ما كنت عليه فالحق به.

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك وأخبرنى أنك على أمره فقال لى أقم عندى.

فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك قد حضرك من أمر الله تعالى ما ترى، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى.

قال : يا بنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه، إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبه فقال :

أقم عندى فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت : يافلان إن فلانا كان قد أوصى

بى إلي فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟.

قال : يا بنى والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبرى فقال : أقم عندى، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة ثم نزل به من أمر الله تعالى، فلما حضر قلت له : يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى وإلي فلان ثم أوصى بى فلان إلي فلان فأوصى بى فلان إلي فلان ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟.

قال : أى بنى والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم – عليه السلام – ، يخرج من أرض العرب، بين حرتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم :

احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه.

قالوا : نعم.

فأعطيتموها وحملونى معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجل يهودى عبدا فكنت عنده، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى.

فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى[1] منه فاحتملنى إلي المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى، فأقمت بها وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلي المدينة فوالله إنى لفى رأسى عذق[2] لسيدى أعمل له فيه بعض العمل، وسيدى جالس تحتى حتى إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان، قاتل الله بنى قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى فلما سمعتها أخذتنى رعدة حتى ظننت أنى ساقط على سيدى، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه : ماذا تقول ؟ فغضب سيدي فلكمنى لكمة شديدة ثم قال :

مالك ولهذا؟ أقبل على عملك.

قلت : لا شيء إنما أردت أن أستنبئه عما قال.

وقد كان عندى شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلي رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغت أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم وقربته إليه.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا.

وأمسك يده فلم يأكل فقلت فى نفسى : هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا ثم جئته به فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه فقلت فى نفسى هاتان اثنتان ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع

---

(١) اشترانى .

(٢) نخل .

الغرقد وقد تبع جنازة رجل من أصحابه وعلي شملتان لي وهو جالس فى أصحابه.

فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلي ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لى صاحبى.

فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته عرف أننى استثبت فى شىء وصف لى، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلي الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكى فقال رسول الله ﷺ : «تحول».

فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليه حديثى فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد.

قال سلمان : ثم قال لى رسول الله ﷺ كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أحييها له وأربعين أوقية.

فقال رسول الله ﷺ : «أعينوا أخاكم».

فأعانونى بالنخل حتى اجتمعت لى ثلثمائة فأديت النخل وبقى علىَّ المال، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من بعض المعادن فقال : ما فعل الفارسى المكاتب.

فدعيت له فقال : خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان.

قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىَّ.

فقال : خذها فإن الله سيؤدى بها عنك.

فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم منها .

فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرا ثم لم يفتنى معه مشهد.

عظمة رسول الله ﷺ

فى القرآن الكريم

لم يقتصر وصف أخلاق الرسول ﷺ على الصحابة والناس المحيطين به فقط، بل أن الأمر كان أجل من ذلك وأعظم، إذ أن الله سبحانه وتعالى زكى رسول الكريم فى كثير من آيات القرآن وسنذكر فى هذا البحث بعضا منها إن شاء الله مع تفسير أسباب النزول حتى يكون ذلك منهاجا متكامل المعانى.

١- قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما فكان أبعد الناس عن الإثم ولا انتقم لنفسه من شىء يؤتى إليه إلا إذا انتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وعن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].

قال : قلت حدثينى عن ذلك، قالت : صنعت له طعاما وصنعت حفصة طعاما فقلت لجاريتى : اذهبى، فإن جاءنى بالطعام فوضعته قبل فاطرحى الطعام، قالت : فجاءت بالطعام فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان قطعا، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : «اقتصوا - أو اقتصى شك أسود - ظرفا مكان ظرفك».

قالت : فما قال شيئا ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقا تطبعه فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا مع ما خلقه الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل كما ثبت فى الصيحين : عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته، ولا لشىء لم أفعله لم فعلته وكان ﷺ أحسن الناس خلقا ولامسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان أطيب من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكا ولا عطرا كان أطيب من رسول الله ﷺ .

٢- قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

قال الحسن البصرى : هذا خلق محمد ﷺ، هذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وعن أبى راشد الحرانى قال : أخذ بيدى أبو أمامة الباهلى وقال أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال :يا أبا أمامة إن من المؤمنين من يلين له قلبى والفظ هنا في قوله تعالى غليظ الكلام لقوله بعد ذلك «غليظ القلب» أى لو كنت سىء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك وآلان جانبك لهم تآليفا لقلوبهم كما قال عبدالله بن عمرو : وأنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : «إن الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض...» ويقول ابن كثير أن لهذا الحديث غرابة.

٣- قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

يقول الله تعالى مسليا رسول الله ﷺ فى حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه وما كان يطرأ على النبى من حزن شديد، وهذا من أعظم أخلاق البشر أن يكون إنسان فى نعمة من نعم الله ثم يتمنى لكل الناس أن يتمتعوا بتلك النعمة وتلك أسمى معانى الروح والتزكية والبعد عن الأنانية ونفس هذا الكلام ينطبق على قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

٤- قال الله تعالى : ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) ﴾ [طه]

عن الضحاك قال : لما أنزل الله تعالى قرآنه على الرسول ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش ما نزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فأنزل الآية الكريمة فليس الأمر كما يزعم المشركون بل من آتاه[1] الله العلم فقد أراد به خيرا كثيرا كما قال ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين».

وقال ﷺ : «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم إلىَّ وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان ولا أبالى».

وأخيرا فالآيات التى تدل على عظمة أخلاق الرسول ﷺ وسماحته كثيرة يضيق بنا المقام أن نذكرها.

---

(١) أتاه.

زهده عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [طه]

وقال تعالى أيضا فى سورة الكهف : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف].

هذا عن القرآن الكريم، وما جاء فيه يحث الرسول ﷺ على الزهد في الحياة الدنيا والإعداد للحياة الآخرة، أما عن الأحاديث الدالة على ذلك فهى كثيرة يضيق بنا المجال أن نذكرها كلها ولكن نذكر منها إن شاء الله ما يلى:

عن ابن عباس قال : إن الله أرسل إلي نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل فقال الملك لرسول الله ﷺ : إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا وبين أن تكون ملكا نبيا، فالتفت رسول الله ﷺ إلي جبريل كالمستشير له فأشار جبريل إلى رسول الله أن تواضع.

فقال رسول الله ﷺ : «بل أكون عبدا نبيا».

قال ابن عباس : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقى الله عز وجل. وفى الصحيحين من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب : دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فى علية فإذا ليس فيها سوى صبرة[1] من فرط، وأهبة معلقة، وصبرة من شعير، وإذا هو مضطجع على رمال حصير قد أثر فى جنبه.

(١) كومة طعام.

فهملت عينا عمر فقال : مالك.

فقلت : يا رسول الله أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هو فيه.

فجلس محمرا وجهه فقال : أو فى شك أنت يا بن الخطاب؟ ثم قال : أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا.

عن ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر بجلده، فجعلت أمسى وأقول : بأبي أنت وأمى ألا أذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك منه تنام عليه ؟

فقال : مالى والدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

وفى البخارى عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ لو أن لى مثل أحد ذهبا ما سرنى أن تأتى على ثلاث ليال وعندى منه شىء أرصده لدين.

وعن عائشة قالت : ما شبع آل محمد ثلاثا من خبز بُر[1] حتى قبض وما رفع من مائدته كسرة قط حتى قبض.

عن عائشة أيضا قالت : إنا كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد نارا، إنما هو الأسودان : التمر والماء، إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلي رسول الله ﷺ بلبن فيشرب ويسقينا من ذلك اللبن.

وعن أبى هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ يوما بطعام سخن فأكل فلما فرغ قال : الحمد لله ما دخل بطنى طعام سخن منذ كذا وكذا.

وعن أنس بن مالك أن فاطمة ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز الشعير فقال : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام.

(١) قمح.

وعن عائشة قالت : دخلت على امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت إلى بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قالت : قلت يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك، فذهبت إليَّ بهذا فقال : رديه.

قالت : فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت :

فقال : رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة.

وسُئلت حفصة : ما كان فراش رسول الله ﷺ ؟

قالت : مسحا[1] تثنيه ثنيتين فينام عليه، فلما كان ذات ليلة قلت : لو ثنيته بأربع ثنيات كان أوطأ له فثنياه بأربع ثنيات، فلما أصبح قال : ما فرشتم لى الليلة ؟ قالت : قلنا هو فراشك، إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات قلنا هو أوطأ لك.

قال : ردوه لحالته الأولى، فإنه منعتنى وطأته صلاتى الليلة.

فكل ذلك لمشاهدته ﷺ القيامة والآخرة، فعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال : «إنى أرى ما لاترون، وأسمع مالا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تأط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد أو راكع، والله لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا. ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلي الصعدات تجأرون إلي الله».

وفي رواية المنذرى « ولحتيتم على نفوسكم التراب» فماذا ينتظر من رسول الله ﷺ بعد هذا.

---

(١) كساء من شعر.

وفي الطبرى عن حكيم بن حزام قال : خرجت إلي اليمن فابتعت حلة ذى يزن[١] فأهديتها إلى النبى ﷺ فردها، فبعتها فاشتراها فلبسها ثم خرج على أصحابه وهى عليه فما رأيت شيئا أحسن منه فيها فما ملكت نفسى أن قلت:

ماينظر الحكام بالفضل بعدما ... بدأ واضح من غرة وحجول

إذا قايسوه الجد أبي عليهم ... بمستفرغ ماء الذناب[١] سجيل[٢]

فسمعها النبى ﷺ فالتفت إلى يبتسم، ثم دخل فكساها أسامة بن زيد.

ومن حديث بلال - رضى الله عنه - عن زهد رسول الله ﷺ عن عبدالله الهورينى قال : لقيت بلالا مؤذن الرسول ﷺ بحلب فقلت : يا بلال حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ ؟

فقال : ما كان له شىء إلا أنا الذي كنت ألي ذلك منه منذ بَعْثَتِه إلي أن توفى، فكان إذا أتاه الإنسان المسلم فرآه عائلا[٤]، يأمرنى فأنطلق فأستقرض فأشترى البردة والشىء فأكسوه وأطعمه حتى اعترض رجل من المشركين فقال : يا بلال إن عندى سعة فلا تستقرض من أحد إلا منى، ففعلت.

فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك فى عصابة من التجار، فلما رآنى قال : يا حبشى قال : قلت له لبيه، فتجهمنى وقال قولا عظيما أو غليظا وقال : أتدرى بينك وبين الشهر! قلت : قريب، قال : «إنما بينك وبينه أربع ليال فآخذك بالذى لى عليك، فإنى لم أعطك أين أعطيتك من كرامتك ولا من كرامة صاحبك وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا فأذرك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك.

---

(١) الملك اليمنى الذى ذِكْرُه آنفا.
(٢) الدلو من الماء .
(٣) الضخم .
(٤) فقيراً .

قال : فأخذنى فى نفسى ما يأخذ الناس، فانطلقت فناديت بالصلاة حتى إذا صليت العتمة[1] ورجع رسول الله ﷺ إلي أهله فاستأذنت عليه فأذن لى فقلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى، إن المشرك الذى ذكرت لك أنى كنت أتدين منه قد قال كذا وكذا وليس عندك ما يقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى، فأذن لى أن آتى إلي بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله ما يقضى عنى فخرجت حتى آتيت منزلى، فجعلت سيفى وجرابى ورمحى ونعلى عند رأسى، فاستقبلت وجهى فكلما نمت انتبهت، فإذا رأيت على ليلا نمت، حتى أنشق عمود الصبح الأول فأردت أن أنطلق فإذا إنسان يدعو : يا بلال أجب رسول الله ﷺ .

فانطلقت حتى آتيه : فإذا أربع ركائب عليهم أحمالهن، فأتيت رسول الله ﷺ فاستأذنت فقال لى رسول الله : أبشر.. فقد جاءك الله بقضاء دينك، فحمدت الله وقال : ألم تر على الركائب الأربع المناخات ؟ قال قلت بلى .. قال : فإن لك رقابهن وما عليهن - فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن له عظيم فدك فاقبضهن إليك ثم اقض دينك.

قال : ففعلت فحططت عنهن أحمالهن، ثم علفتهن ثم عمدت إلي تأذين صلاة الصبح حتى إذا صلي الرسول ﷺ خرجت إلي البقيع فجعلت أصبعى فى أذنى فقلت : من كان يطلب من رسول الله ﷺ دينا فليحضر فما زلت أبيع وأعرض حتى لم يبق على رسول الله ﷺ دين فى الأرض حتى فضل عندى أوقيتان أو أوقية ونصف.

ثم انطلقت إلى المسجد وقد ذهب عامة النهار فإذا رسول الله ﷺ قاعد فى المسجد وحده، فسلمت عليه فقال لى : ما فعل ما قبلك ؟ قلت : قد قضى الله

---

(١) العِشاء.

كل شيء كان على رسول الله ﷺ فلم يبق شيء، قال : فضل شيء ؟ قلت نعم ديناران قال : انظر أن تريحنى منهما، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما.

فلم يأتنا أحد، فبات فى المسجد حتى أصبح، وظل فى المسجد اليوم الثالث حتى إذا كان فى آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلي العتمة دعانى فقال : ما فعل الذى قبلك : قلت الحمد لله قد أراحك الله منه. فكبر وحمد الله، شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم أتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة حتى أتى بيته، فهذا الذى سألتنى عنه.

تفضيل رسول الله ﷺ

على الأنبياء جميعا

قال الله تعالى للرسول ﷺ ، معرفا لقدره لديه :

﴿ ولَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ [النساء].

وقد فضل الله تعالى بعض الرسل على بعض فقال تعالى :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾[البقرة]

التفضيل الأول صريح فى أصل المفاضلة، والثانى فى تضعيف المفاضلة بدرجات، ونكرها تنكير التعظيم.

ونورد الوجوه التى تبين تفضيل الله تعالى نبينا محمدا ﷺ .

١- أنه ساد كل الخلائق بما فيهم البشر فقال ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». والسيد من اتصف بالصفات العليا وأخلاق سنية، وهذا مشعر بأنه أفضل منهم في الدارين. أما فى الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق العظيمة المذكورة، وأما فى الآخرة فلأن جزاء الآخرة مرتب على الأوصاف والأخلاق. فإذا فضلهم فى الدنيا فى المناقب والصفات، فضلهم فى الآخرة فى المراتب والدرجات.

وإنما قال ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» لتعرف أمته منزلته من ربه عز وجل. ولما كان ﷺ يذكر مناقب نفسه فأراد أن يقطع وهم من يتوهم من الجهلة أنه ذكر ذلك افتخارا، فقال : « ولا فخر».

٢- ومنها : قوله ﷺ : «وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر».

٣- ومنها : قوله ﷺ : «وما من نبى يومئذ آدم فمن دونه إلا تحت لوائى يوم القيامة، ولا فخر». والنبى ﷺ يقول ولا فخر ولا أقول ذلك فخرا بل تحدثا بنعمة الله. وتفضيله هذا إنما بتفضيل الله سبحانه له، وهذه الخصائص تدل على علو مرتبته على آدم -عليه السلام- وغيره، إذا لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب.

ونستخلص من ذلك : أن سيدنا محمدا ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق ثم سيدنا إبراهيم، ثم سيدنا موسى، ثم سيدنا عيسى، ثم سيدنا نوح، وهؤلاء أولو العزم، ثم بقية الرسل، ثم الأنبياء وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى، ثم جبريل، ثم ميكائيل، ثم بقية الرؤساء، ثم عوام البشر، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، ثم عوام الملائكة، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله أيضا».

٤- ومنها : أن الله عز وجل أخبره أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولم ينقل أنه أخبر أحدا من الأنبياء بمثل ذلك، بل الظاهر أنه لم يخبر، لأن كل واحد منهم إذا طُلب منه الشفاعة فى الموقف ذكر خطيئته[1] التى أصاب وقال : نفسى نفسى. ولو علم كل واحد منهم بغفران خطيئته التى أصاب لم يوجل منها ذلك المقام، واستشفعت الخلائق بالنبى ﷺ فى ذلك المقام قال : أنا لها.

٥- ومنها : إيثاره ﷺ على نفسه بدعوته، إذ جعل الله لكل نبى دعوة

(١) هى خطايا بالقياس إلى علو شأنهم ولكنها ليست خطيئة على الحقيقة لأن الأنبياء معصمون من الخطأ.

مستجابة، فكل منهم تعجل دعوته فى الدنيا، وترك هو ﷺ، دعوته وشفاعة لأمته.

٦- ومنها : أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته ﷺ فى قوله تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر].

والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها، لما كان فيها من البركة العامة والخاصة. ولم يثبت هذا لغيره ﷺ .

٧- ومنها : أن الله تعالى وقره فى ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأسنى أوصافه، فقال : ﴿ يا أيها النبى ﴾ [الأنفال : ٨]، ﴿ يا أيها الرسول ﴾ [المائدة : ٤١]، ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : ١]، ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر: ١]، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أن كلا منهم نودى باسمه، فقال الله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [البقرة : ٣٥]، ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ﴾ [المائدة :١١]، ﴿ يا موسى إنى أنا الله ﴾ [النمل : ٩]، ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾ [هود : ٤٨]، ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ [ص : ٢٦]، ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ [الصافات : ١٠٤ -١٠٥]، ﴿ يا لوط إنا رسل ربك ﴾ [هود : ٨١]، ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ [مريم : ٧]، ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم : ١٢].

ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا أحد عبيده بأفضل ما وجد فيه من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه، وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم. وهذا معلوم بالعرف.

٨- ومنها : أن معجزة كل نبى انقضت، ومعجزة سيد الأولين والآخرين،

وهى القرآن العظيم، باقية إلي يوم الدين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الــذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر].

٩- ومنها : تسليم الحجر عليه، وحنين الجزع إليه، ولم يثبت لواحد من الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك.

١٠- ومنها : أنه وجد فى معجزاته ما هو أظهر فى الإعجاز من معجزات غيره، كتفجر الماء من بين أصابعه، فإنه أبلغ فى خرق العادة من تفجره من الحجر، لأن جنس الأحجار مما يتفجر منه الماء. فكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى عليه السلام.

١١- ومنها : أن عيسى عليه الصلاة والسلام أبرأ الأكمه والأبرص مع بقاء عينه فى مقرها. ورسول الله ﷺ رد العين بعد أن سالت على الخد[1].

ففيه معجزة من وجهين :

أحدهما : التئامها بعد سيلانها.

والآخر: رد البصر إليها بعد فقده منها.

١٢- ومنها : أن الأموات الذين أحياهم من الكفر بالإيمان أكثر عددا ممن أحياهم عيسى بحياة الأبدان. وشتان بين حياة الإيمان وحياة رالأبدان.

١٣- ومنها: أن الله تعالى يكتب لكل نبى من الأنبياء الأجر بقدر أعمال أمته وأحوالها وأقوالها. وأمته شطر أهل الجنة. وقد أخبر الله تعالى أنهم خير أمة أخرجت للناس.

وإنما كانوا خير الأمم لما اتصفوا به من المعارف والأحول والأقوال والأعمال.

(١) عين قتادة.

فما من معرفة، ولا حالة، ولا عبادة، ولا مقالة، ولا شيء مما يتقرب به إلى الله عز وجل، مما دل عليه رسول الله ﷺ ودعا إليه، إلا وله أجر من عمل بها إلى يوم القيامة لقوله ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من عمل به إلي يوم القيامة». ولا يبلغ أحد من الأنبياء إلى هذه المرتبة.

وقد جاء فى الحديث : «الخلق عيال الله، فأحبهم إلي الله أنفعهم لعياله» فإذا كان ﷺ قد نفع شطر أهل الجنة. وغيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، إنما نفع جزءا من أجزاء الشطر الآخر، كانت منزلته ﷺ ، فى القرب على قدر منزلته فى النفع.

فما من عارف من أمته إلا وله ﷺ مثل أجر معرفته مضافا إلي معارفه ﷺ. وما من ذى حال من أمته إلا وله ﷺ، مثل أجره على قدر حاله مضموما إلى أحواله ﷺ .

وما من ذى مقال يتقرب به إلي الله عز وجل إلا وله ﷺ مثل أجر ذلك القول، مضموما إلى مقالته ﷺ وتبليغ رسالته. وما من عمل من الأعمال المقربة إلى الله عز وجل من صلاة، وزكاة، وعتق، وجهاد، وبر، ومعروف، وذكر، وصبر، وعفو، وصفح، إلا وله ﷺ مثل أجر عامله، مضموما إلى أجره على أعماله.

وما من درجة علية، ومرتبة سنية نالها أحد من أمته بإرشاده ودلالته إلا وله مثل أجرها مضموما إلي درجته ﷺ ومرتبته، ويتضاعف ذلك بأن من دعا من أمته إلى هدى، أوسن سنة حسنة كان له أجر من عمل بذلك على عدد العاملين. ثم يكون هذا المضاعف لنبينا ﷺ ، لأنه دل عليه وأرشد إليه.

ولأجل هذا بكى موسى - عليه السلام - ليلة الإسراء بكاء غبطة غبط بها النبى ﷺ إذ يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمة موسى. ولم يبك

حسدا كما توهمه بعض الجهلة، وإنما بكى أسفا على ما فاته من مثل مرتبته.

١٤- ومنها : أن الله عز وجل أرسل كل نبى إلي قومه خاصة، وأرسل نبينا ﷺ إلي الجن والإنس. فلكل نبى من الأنبياء ثواب تبليغه إلي أمته، ولنبينا ﷺ ثواب التبليغ إلي كل من أرسل إليه، تارة بمباشرة الإبلاغ، وتارة بالتسبب إليه. ولذلك تمنن الله تعالى عليه فقال :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً (٥١) ﴾ [الفرقان].

ووجه التمنن، أنه لو بعث فى كل قرية نذيرا لما حصل لرسول الله ﷺ إلا أجر إنذاره لأهل قريته.

١٥- ومنها : أن الله تعالى كلم موسى بالطور، وبالوادى المقدس. وكلم نبينا ﷺ، عند سدرة المنتهى فقال الله تعالى :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) ﴾ [النجم].

١٦- ومنها : أنه قال : « نحن الآخرون السابقون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق، ونحن أول من يدخل الجنة».

١٧- ومنها: أنه كلما ذكر السؤدد مطلقا فقد قيده بيوم القيامة. فقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع».

١٨- ومنها: أنه ﷺ أخبر أنه يرغب إليه الخلق كلهم يوم القيامة حتى إبراهيم – عليه السلام –.

١٩- ومنها : أنه يدخل من أمته الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولم يثبت ذلك لغيره.

٢٠- ومنها : أنه قال ﷺ : «الوسيلة منزلة فى الجنة لا ينبغى أن تكون إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

٢١- ومنها : الكوثر يقول الله تعالى : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر الذي أعطيه النبى ﷺ في الجنة، والحوض الذى أعطيه فى الموقف.

٢٢- ومنها : قول ﷺ : «نحن الآخرون السابقون» أى الآخرون زمانا، السابقون بالمناقب والفضائل.

٢٣- ومنها : أن الله تعالى أثنى على خلقه فقال : ﴿وإنك لعلي خلق عظيم﴾ [القلم : ٤]، واستعظام العظماء للشىء يدل على إيغاله فى العظمة، فما الظن باستعظام أعظم العظماء ؟.

٢٤- ومنها: أن كتابه ﷺ، مشتمل على ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور، وفضل بالمفصل.

فعن وائلة بن الأسقع أن النبى ﷺ قال : «أعطيت مكان التوراة السبع[1]، وأعطيت مكان الزبور المئين[2]، وأعطيت مكان الإنجيل المثانى، وفُضلت بالمفصل».

والسبع الطوال : أولها البقرة وآخرها براءة.

٢٥- ومنها : أن أمته أقل عملا ممن قبلهم الأشعرى عن النبى ﷺ :

---

(١) السبع المثانى : هى الفاتحة . (٢) السورة التى يزيد عدد آياتها عن مائة .

«مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا إلي الليل، فعملوا إلي نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلي أجرك، فاستأجر آخرين فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت - فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا : لك ما عملنا. فاستأجر قوما فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين».

٢٦- ومنها : أن الله عز وجل عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض، وخيره بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا- فاستشار جبريل، فأشار إليه أن تواضع. فقال : « بل نبيا عبدا، أجوع يوما وأشبع يوما».

فإذا جعت دعوت الله، وإذا شبعت شكرت الله». وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - مرفوعا قال : « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا، قلت : لا يارب. ولكن أشبع يوما وأجوع يوما، أو قال ثلاثا أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك».

قصد ﷺ أن يكون مشغولا بالله فى طورى الشدة والرخاء، والنعمة والبلاء.

٢٧- ومنها : أن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين - فأمهل عصاة أمته، ولم يعاجلهم إبقاء عليهم، بخلاف من تقدمه من الأنبياء، فإنهم لما كذبوا عوجل تعذيبهم.

٢٨- وكما فضله الله على أنبيائه ورسله من البشر، فكذلك فضله على من اصطفاه من رسله من أهل السماء وملائكته، لأن أفاضل البشر أفضل من الملائكة، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة]

والملائكة من جملة البرية، لأن البرية : الخليقة، مأخوذة من «برأ الله

الخلق» أى اخترعه وأوجده. ولا يدخل الملائكة فى قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مع أنهم قد آمنوا وعملوا الصالحات، لأن هذا اللفظ مختص بعرف الاستعمال بمن آمن من البشر، بدليل أنه هو المتبادر إلي الأفهام عند الإطلاق.

فإن قيل : البرية مأخوذ من البرى، وهو التراب، والبشر مخلوقون من التراب، فكأنه قال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البشر).

فالجواب من وجهين :

أحدهما: أن أئمة اللغة قد عدوا البرية فى جملة ما تركت العرب همزه.

والوجه الثانى : وهو الأظهر : أن نافعا قرأ بالهمز.

وكلا القراءتين كلام الله. فإن كانت إحدى القراءتين قد فضلت الذين آمنوا وعملوا الصالحات على سائر البشر، فقد فضلتهم القراءة الأخرى على سائر الخلق، فإذا ثبت أن أفاضل البشر أفضل من الملائكة، فالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بدليل قوله تعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء :

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾ [الأنعام]. فدلت هذه الآية على أنهم أفضل البشر، وأفضل من الملائكة، لأن الملائكة من العالمين سواء أكان العالم مشتقا من العلم أو من العلامة،

وإذا كانت الأنبياء أفضل من الملائكة، ورسول الله ﷺ أفضل الأنبياء، فقد ساد سادات الملائكة، فصار أفضل من الملائكة بدرجتين، وأعلى منهم برتبتين، لا يعلم قدر تلك الرتبتين، وشرف تلك الدرجتين إلا من فضل خاتم النبيين وسيد المرسلين على جميع العالمين.

عفوه ورحمته ﷺ

عفوه ﷺ عمن أسرفوا فى إيذائه، هو الخلق الكريم الذي أدبه به القرآن، قال تعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وبين الوحى معناه بقوله : «أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». فالعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس، يتجلى فيها سمو المقصد، وبعد الغاية، والترفع عن الشهوات، وتبدو البطولة فى أروع صورها... ولن تجد فى تاريخ الأبطال، بل تاريخ البشر كلهم مثل محمد ﷺ ظافرا، ناجحاً، مؤيداً، يعطى من حرمه، ويعفو عمن ظلمه.

كانت مكة والطائف مركزى العداوة الشديدة، تتنافسان فى الوفاء للات والعزى، فلم يكن شراً على محمد ﷺ من قريش، ولا أرغب فى الشرك من ثقيف، وبرز فى القريتين رجال مثل أبى جهل بن هشام، وعكرمة ابنه، وأمية ابن خلف، وصفوان ابنه، والعاص بن وائل السهمى، والوليد بن المغيرة، وأبى سفيان بن حرب، وبنى عمرو بن عمير الثلاثة، وأبى مسعود الثقفى، ومالك بن عوف، وأضرابهم مخن اتخذوا إيذاءه ﷺ والسخرية به وقتاله وهجوه متعة بها يتلذذون، ومفخرة بها يفاخرون.

وينقسم ذلك الأذى والاضطهاد إلي أربعة أطوار، ويبتدأ الطور الأول بإيذائه، والتصغير من شأنه، وقت أن كان مثل أبى لهب يقول له، وهو ينذر الناس فوق الصفا : تبا لك ! ألهذا دعوتنا؟ والطور الثانى يبتدأ بصحيفة المقاطعة، وهى ميثاق علق بالكعبة، وتعاهد فيه المشركون على مقاطعة بنى هاشم، لحمايتهم ابنهم محمداً ﷺ فكاد يهلك ذلك البيت جوعا، وهو مقطوع فى شعب بنى هاشم.

كان هذا الطور شديدا فإن الميثاق المقدس حرم على الناس أن يتزوجوا مع آل محمد ﷺ ، أو يبيعوهم، أو يشتروا منهم، أو تكون لهم بهم صلة ما.
ويبتدأ الطور الثالث بوفاة أبى طالب عمه وحاميه، وخديجة زوجه ومواسيته، حين نثر التراب على رأسه، وضاقت عليه الدنيا، ولولا الإيمان والنبوة الصادقة لانتهى به الأمر إلي أن تخور قواه، أو أن يهيم على وجهه في الأرض.

فى ذلك الطور خرج إلي الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف، والامتناع بهم من قومه، فردوه أشنع رد، وسخر به زعماؤها الثلاثة من بنى عمرو بن عمير، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟ وقال الآخر : والله لا أكلمك أبدا .. لئن كنت رسولا كما تقول لأنت أخطر من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك، فسألهم محمد أن يكتموا عليه، وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عنى.

وكان يخشى سوء المنقلب إلى مكة، والشماتة والغلو فى إيذائه، فأبوا حتى هذه عليه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، حتى أخرجوه من البلد، وتتبعه الصبية والسوقة يصيحون مسيرة ثلاثة أميال، يعيثون به، ويقذفونه بالحجارة، حتى أدموا قدمية، وكلما جلس أقاموه، وأجبروه على المشى، فلجأ إلي حائط لعتبة بن ربيعة، فلما اطمأن قال : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس.

يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلي من تكلنى؟ إلي بعيد يتجهمنى؟ أم عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك، أو تحل علىَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رجع إلي مكة لم يستطع أن يدخلها إلا فى حماية مطعم بن عدى، ثم اختتمت مكة هذا الطور من أطوار الإيذاء على قتله، وتفريق دمه بين القبائل، حتى يعجز عن طلبه بنو عبد مناف. فهاجر إلي المدينة، وابتدأ بذلك الطور الرابع. وحديث هجرته إليها، وما لقي فى طريقه مشهور.

ولننظر بعد ذلك إلى معاملته لأهل مكة والطائف، ورؤساء الفتنة، وزعماء الشر الذين أسرفوا فى إيذائه واضطهاده، لتتجلى لنا نفسه الكريمة فى مرآة عفوه وصفحه الجميل. ولننظر إليه فاتحا فى جيش لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة، وتطؤها خيله، ويمر إلي حنين والطائف، فيقع بين يديه ستة آلاف من أسرى هوازن وثقيف، ويفر من بقى من السادة المتكبرين، ومالك بن عوف، وياليل بنى عمرو بن عمير. ولننظر إليه والبلاد فى رحمته يشملها عفوه، والسادة والزعماء الذين عتوا فى الأرض يجزون بالبر والإحسان، وأبطال الأمم لا نعرف لأمثالهم غير قطع الرءوس.

فهذا محمد ﷺ في ذروة المروءة لا يدانى، وقبل أن يصل الجيش الفاتح إلي مكة خرج أبو سفيان فى ثلاثة نفر مستطلعا، فعلم أن لا طاقة له ولقومه بلقاء محمد، فأردفه العباس على بغلة النبى ﷺ التى كان يركبها، ودخل به المعسكر ليلا، يطلب الأمان له ولمكة، فكان كلما مر بنار من نار المسلمين قالوا: هذا عم النبى على بغلته، حتى مر بنار عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- ، فقال : من هذا؟ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال : أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم سارع إلى رسول الله ﷺ يقول : دعنى أضرب عنقه، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد.

ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان فى رحل العباس. فلما أصبح جيىء به. فأسلم وعفا عنه، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا، فقال : نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن،

ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وعاد أبو سفيان إلي مكة مسرعا، والجيش يزحف إليها، وهو يقول : والله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ! فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. فقالوا: قاتلك الله! وما تغنى عنا دارك ؟ فقامت هند بنت عتبة زوجته التى لاكت كبد حمزة يوم أحد، فأخذت بشاربه، وقالت : اقتلوه قبح من طليعة قوم! فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم، فإنه قد جاءكم من ولا قبل لكم به، من دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

أى مثل فى العفو الكريم أعظم من هذا؟ أبو سفيان الذى فعل الأفاعيل والذى أدمى كبد الرسول ﷺ فى أحد، والذي زلزل بحصاره المسلمين فى الخندق، أبو سفيان العاق من ولد عبد مناف، الذى ناصر مخزوما وسهما على محمد وبنى هاشم، يعفو عنه رسول الله ﷺ، ثم يعطيه مع العفو ما ينحنى به! وقد كانت هبة الحياة كل الرجاء، فإذا الحياة والجاه بعض عطايا رسول الله للمقهورين من أعدائه.

دخل رسول الله ﷺ مكة، ولكن عكرمة بن أبي جهل، وصفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن جمعوا من الناس أبوا إلا قتالا، فهزموا وفروا، ثم استأمنوا فأمنوا، بل عفا عنهم، بل أعطوا من غنائم هوازن، تأليفا لقلوبهم ! ولننظر إلى مثل لن نجد له شبيها فى تاريخ البشرية، فهذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفر إلى جدة، ليبحر إلي اليمن، فيأتى عمير بن وهب لرسول الله، فيقول : يا نبى الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه، قد خرج هاربا منك، ليقذف نفسه فى البحر فأمنه، قال : هو آمن. قال : يا رسول الله، فأعطنى آية يعرف بها أمانك، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل بها مكة.

فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، فقال : يا

صفوان، فداك أبى وأمى ! الله الله فى نفسك أن تهلكها! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به، قال : إنى أخافه على نفسى، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ ، فقال صفوان : إن هذا بزعم أنك قد أمنتنى ؟ قال : صدق. قال فاجعلنى فيه بالخيار شهرين. قال : أنت بالخيار أربعة أشهر.

هذا العدو ابن العدو صفوان بن أمية لا يلقى من بر رسول الله ﷺ أن يعفو عنه فحسب، بل يبعث عمامته التى فتح بها مكة تطمينا للهائم على وجهه إلي البحر، ثم إذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الإسلام أو الشرك شهرين، قال: بل أربعة، كى لا يقهره ولا يذله، فهل فى تاريخ البشر مثال من العفو عند المقدرة أبر وأكرم من هذا الذي فعله خير ولد بنى آدم محمد ﷺ .

وهذا رجل آخر جاءه قبيل الفتح، وكان عاقا مسرفا فى هجوه وإيذائه للرسول، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وطلب الإذن عليه، فقال : لا حاجة لى به وقد هتك عرضه وكان مع أبى سفيان بنى له، فقال : والله ليأذن لى، أو لآخذ بيد ابنى هذا لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا. فلما بلغ رسول الله ﷺ وماله، دخل عليه وعفا عنه، فقال :

لعمرك إنى يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

وفى مكة وهو طائف بالبيت أراد فضالة بن عمير أن يقتله، فلما دنا منه قال : أفضالة ؟ قال : نعم، فضالة يا رسول الله ﷺ . قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيىء، كنت أذكر الله عز وجل، فضحك النبى ﷺ ثم قال : «استغفر الله ! ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى لم يكن من خلق الله شيء أحب إلىَّ منه.

ثم هاكم مثلا من عفوه عن رجل أبكاه، وقهر المسلمين، وحزنهم، وهو عبد حبشي يقال له : وحشى، ذلك هو قاتل حمزة. يقول وحشى : خرجت حتى ملت إلي رسول الله بعد فتح مكة والطائف، فلم يرعه إلا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رآنى قال : أوحشى؟ قلت : نعم يا رسول الله ! قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك يا وحشي غيب عنى وجهك، فلا أرينك، قال : فكنت أتنكب رسول الله حيث كان، لئلا يرانى، حتى قبضه الله.

فذلكم هو ضبط النفس والعفو فى أحسن صوره. رجل لا يستطيع رسول الله أن ينظر إلي وجهه، وهو قاتل عمه، وهو عبد لا أصل له ولا عشيرة، يعفو عنه، وأحب شىء إلى المسلمين أن يروا منه كما رأوا أحشاء حمزة الذي طعنه بحربته.

ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسول الله ﷺ على باب الكعبة، فقال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾[الحجرات].

ثم قال : يا معشر قريش، ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم جلس رسول الله، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده، فقال : يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية - وكانت الحجابة فى غير بنى هاشم - فقال : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.

وها هى ذى ثقيف كلها بين يديه ووفدها فى المدينة، وقد أكلتها العرب، وهانت على الناس، فماذا فعل بها، وفى وفدها رجل مثل ياليل بن عمرو بن عمير الذى طرده من الطائف، أما مالك بن عوف فذلك من سيق إليه عفوه، فرد إليه ماله وأولاده، ووهب له مائة ناقة، وأما هؤلاء فقد رجعوا إلي أهليهم بعفو شامل وأمان كامل، والأمثلة كثيرة فى عفوه ﷺ ، ولكن يعجز المقام عن ذكرها، ولكن تنقضى الأيام ويبقى فيها رسول الله ﷺ المثل الأعلى، والقدوة الحسنة للناس جميعا.

وأما عن رحمته ﷺ فهى جانب عظيم من جوانب شخصيته، الذى لا يدانيه فيه أحد، وهو صورة لنفسه الكريمة، فى أيام فقره وغناه، وضعفه وقوته، فقد كان البر أمامه، والرحمة محيطة به، وهو الذى يقول : « إن البر يهدى إلي الجنة. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، لا يرحم الله من لا يرحم الناس، الراحمون يرحمهم الرحمن، لا تنزع الرحمة إلا من شقى». وقد وصفه القرآن بهذه الصفة فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

كانت رحمته تسع الناس جميعا، وكان بره يصل إلى المؤمنين والمشركين، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلي قلبه الكبير، وعطفه الشامل، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيا وميتا. روت السيدة عائشة - رضى الله عنها- أنه كان يقول : «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى

زمرة المساكين». فقال عائشة : لم يا رسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا. يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة، أحبى المساكين وقربيهم يقربك الله يوم القيامة».

فكانت حياته ﷺ موصولة بالفقراء، وكان كل مافى بيته ويده لهم، بلغ من عطفه عليهم أن مر رجل عليه، فقال لرجل عنده : ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسمع لقوله، فقال ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

لقد عمل الرسول ﷺ بما آتاه الله، وما أودع فطرته من الرحمة، على رفع شأن الفقير وإكرامه، والأخذ بيد الضعيف، وأرسل بره فى هذه الطبقة، حتى قلب نظام المجتمع الذى ظهر فيه سنين قليلة، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد، كما كان يقول ﷺ: «ابغونى ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» وكان يسره أن يجتمعوا إليه.

وقد آثر الحديث مرة واحدة بعض الأغنياء الأقوياء من قومه، فنزل القرآن بمعاتبته ﷺ، فقال تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) ﴾ [عبس]

وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين، وذهابه بهم إلي الحرم، فقالت أهؤلاء مَن الله عليهم من بيننا، ولكنه كان بالمساكين رؤوفا رحيما.

يقول عبد الله بن عمر وبن العاص : دخل النبى المسجد، فجلس إلى الفقراء، وبشرهم بالجنة، وبدا على وجوههم البشر، فحزنت لأننى لم أكن منهم.

ورأى سعد بن أبى وقاص يتعالى على المساكين، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر، إنما هو أثر هؤلاء الفقراء، وأنه مدين للمساكين، وقد تحقق ذلك واضحا جليا حينما قاد سعد بن أبى وقاص هؤلاء الفقراء المستضعفين إلى القادسية، فهزم بهم رستم، ووطئ دولة الأكاسرة، التى كان العرب بعض رعاياها.

كانت رحمته وبره بالمساكين تمتد إلي ما بعد الموت. جاء في صحيح البخارى «إن النبى ذكر ذات يوم رجلا أسود، فقال ما فعل ذلك الإنسان؟ قالوا: مات يا رسول الله، قال : أفلا آذنتمونى ؟ فقالوا: إنه كان كذا وكذا قصته، فحقروا من شأنه، قال : فدلونى على قبره، فأتى قبره، فصلى عليه».

وكان ﷺ يجاهد لتحرير العبيد، ولرفع قيمتهم، فلم يدخر مالا. ولا سلطانا ولا دعوة فى سبيلهم، وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم والبر بهم، وأظهر مثل لم يكن زيد بن حارثة مملوكا للنبى ولم يكن للنبى عبيدا بل موال، الذى خير بين سيده محمد ووالده، فاختار محمدا فى الوقت الذى كان لا حول ولا قوة له، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها وهو الذي جعل معتوقه زيدا هذا، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم، فاستشهد فى وقعة مؤتة، ولما استأنف النبى غزو الروم بعد الفتح قلنا: إنه لم يكن لرسول الله ﷺ رقيق بل موال، هو أسامة بن زيد هذا وهو حدث فى العشرين، ومشى أكابر الصحابة وأشراف قريش والنبى فى موكبه.

فكان ﷺ بهذا يرفع برحمته وبره شأن الأرقاء المستعبدين؟ وكان ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة سيىء الملكة، ويقول: حسن الملكة يمن وسوء الملكة شؤم».

وكان بارا بالخدم والعمال، روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين» !

وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك رسول الله فقال : أعتقوها، فقيل. ليس لهم خادم غيرها. قال : فليستخدموها، فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها، وعن أبى مسعود قال : ضربت غلاما لى بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، فإذا برسول الله يقول : اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام. وبلغ من رحمته ﷺ أنه كان لا يطيق أحدا يقول : عبدى أو أمتى، فأمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك، وأن يقولوا: فتاى وفتاتى، وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر فى تحرير الأرقاء، ونشر المساواة، وتغليب روح الأخوة على ما كان من العصبية، والغروروالتفاخر.

يقول المعرور بن سويد : رأيت أبا ذر وعليه حلة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هم أخوانكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم عليه.

وقال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لى أف قط، وكان ﷺ يخالط المساكين والخدم والعبيد ويحادثهم ويجيب دعوتهم، ويعود مرضاهم، ويمشى فى جنائزهم، ويصلي عليهم، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيبا فى بيت المال لتحرير الأرقاء، وكان ﷺ يعطى العبد بعد تحريره شيئا يعينه على الكسب.

لم يكن رسول الله ليقصر رحمته وبره، الذي هو صورة صادقة لنفسه الكريمة، على الناطقين من بنى الإنسان، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفزته لكفاح موفق فى سبيل الرفق بالحيوان، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أنكرها وأزالها. كانوا يقتطعون من حيواناتهم، وهى حية فيشوون ويطعمون، فحرم ذلك، ولا يزال إلى اليوم بعض الطوائف فى الصحراء الكبرى

برغم إسلامهم يعملون شيئا من هذا، فهم إذا خرجوا للغزو، وبعدت عليهم الشقة، قصدوا البعير، فأخذوا من دمه، وطبخوه وأكلوه، أو شقوا عن سنامه فاقتطعوا من الدهن، ثم خاطوا السنام، وأكلوا الدهن – وكان شك الحيوان، ولا يزال ضرورة لإثبات الملكية فى البادية، فنهى عن ذلك الأذى، وخففه باختيار أقل الأثر فى أقل الأعضاء إحساسا.

وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافا للرماية، فنهى عن ذلك، وعن أن يقطعوا ذيول الخيل. ومر مرة بناقة مربوطة جائعة، فحل وثاقها وأطلقها. وأوصى الناس أن يخشوا الله فى البهائم.

ومن الأمثلة التى ضربها ﷺ أنه قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له».

فقالوا : يا رسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجراً؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر. وقال أيضا : دخلت امرأة النار فى هِرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض.

تلك الأمثال يضربها رسول الله ﷺ لقوم ما كانوا يظنون فى الرفق بالحيوان أجرا، وقد كان لها أكبر الأثر فى الرحمة والرفق فى نفوس المسلمين، ومن تأدب بأدبهم فى الشرق والغرب، وكان من عادات الجاهلية أن يتخذوا ظهور دوابهم منابر، فنهى عن ذلك، وقال : إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلي بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم.

وهذه رحمته يجيش بها قلبه الكبير على عصفور صغير: قال عبدالرحمن

بن عبد الله، كنا مع رسول الله فى سفر، فرأينا حمرة، (طائر فى شكل عصفور) معها فرخان لها، فأخذناها، فجاءت الحمرة تعرش - أى ترفرف - فلما جاء الرسول ﷺ قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها وقال ﷺ فى قسوة عائشة على بعير ركبته : «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

هذه الرحمة بالإنسان والحيوان كانت تظهر أنسا وبشرا فى وجهه إذا رأى الطفل، أو لقي الصبى، فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه، ويطرب لذلك، وكان إذا مر بالصبية يقرؤهم السلام. وحدث جابر بن سمرة: أن النبى ﷺ رأى صبية يتسابقون، فجرى معهم، وكان يلقى الصبى فى الطريق فيركبه ناقته ليسره.

وكان أبر والد بولده، يقول أنس : أنه لا يعلم رجل أبر بأهله وولده من محمد - وقال أسامة ابن زيد : كان رسول الله يأخذنى فيقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمها، ثم يقول : اللهم ارحمهما فإنى أحبهما.

وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسو ل الله ﷺ وهو يقبل أولاده وأولاد أصحابه، فقال الأقرع بن حابس مرة وقد رآه يقبل الحسين : إن لي عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم قط، واعترض آخرون بمثل هذا المعنى على الشفقة غير المألوفة، وكان رسول الله ينكر عليهم أن يكونوا غلاظ الأكباد قساة القلوب.

قالت عائشة : جاء أعرابى إلي النبى، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فلما تقبلهم : فقال النبى ﷺ: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟ وهذه الرحمة من نفس رسول الله كما كانت تبدو بشرا أو إنسانا، كانت تفيض دمعا وأسى، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه، فكان يبين لهم أنها رحمة، ولا عيب فيها.

مات لإحدى بناته ولده فلما رفع إليه وكانت نفسه تقعقع كأنه شن - أى قربة جف جلدها- فاضت عيناه، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وجاءت نوبة سعد نفسه، فاشتكى، وذهب النبى يعوده، فلما دخل عليه، فوجده فى غاشية بين أهله. قال : قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبى، وقال : ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين، ولا حزن القلب، ولكن يعذب بهذا، وأشار إلي لسانه.

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمحالفين من أهل الملل الأخرى. رفع إليه بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزنا شديدا، فقال بعضنهم ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين؟ فغضب النبى، وقال ما معناه : إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، فإياكم وقتل الأولاد، إياكم وقتل الأولاد.

وروى البخارى عن جابر بن عبدالله قال : مرت بنا جنازة، فقام لها النبى وقمنا، فقلنا : يا رسول الله، أنها جنازة يهودى، فقال : أوليست نفسا؟ إذا رأيتم الجنازة فقوموا. ولما مات النجاشى[1] نعاه لأصحابه، ثم تقدم، فصف الناس خلفه وصلى عليه.

تلك هى الرحمة التى لا تعرف التخصيص بالدين أو الوطن، ولا فرق عندها بين الرفق بالإنسان والحيوان.

وسئل مرة أن يلعن أعدائه، فقال : ما جئت لعانا، بل رحمة - ولما مات عبد الله بن أُبى بن سلول، وكان زعيم المنافقين فى المدينة، وهو الذى رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد، فخذل النبى فى أحرج أوقاته، وله مواقف مشهورة

(١) ملك الحبشة وكان قد أسلم وحمى أصحاب رسول الله ﷺ فى الحبشة ومنع ردهم إلى قريش.

كان فيها شرا على الرسول ﷺ والمسلمين، لما مات طلب ابنه من النبى قميصه ليكفنه فيه، تطهيرا له، فأعطاه قميصه كفنا لزعيم المنافقين. أرأينا أبر وأكرم من هذا الصنيع؟

ثم مشى النبى إلى قبره، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب إليه عمر بن الخطاب، وقال : يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا؟! يعد عليه قوله، فتبسم الرسول، وقال : إليك عنى يا عمر.. قال عمر : فلما أكثرت عليه قال : أنى خيرت فاخترت، لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها،وانصرف.

وذلك اشارة إلي قوله تعالى فى المنافقين : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

ففى الخيار بين أن يستغفر، أو لا يستغفر، نزعت به طبيعته الرحيمة إلي الاستغفار لأعدائه بل قال لعمر : لو علمت أنى لو زدت فى الاستغفار على السبعين غفر لهم، لفعلت أكثر من سبعين مرة.

تلك هى الرحمة التى وسعت أعداءه وأصدقاءه والناس جميعا.

وسمع مرة أعرابيا يصلى خلفه، يقول : اللهم ارحمنى ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فلما سلم قال : لقد ضيقت واسعا.

فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة، يتضح أنه ﷺ لم يكن نتاجا للبيئة التى عاش فيها، وإنما كان الرحمة الشاملة فى وسط الجفوة والعصبية والأثرة[1]، تلك الرحمة التى لا حد لها هى التى جعلته

(١) الأنانية.

يدعو لأعدائه، وقد سئل الدعاء عليهم فى أُحد وهو جريح، وعمه حمزة مُمثل به، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد، وهى التى جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة، وطريق الشام، وقد سألوه صلة الرحمة، وشكوا جوع أهليهم، وهم الذين أخرجوه من داره وحصروه فى المدينة.

فرحمته وبره ﷺ وسعتا العدو والصديق، والقوى والضعيف، والحر والعبد، والحيوان، وفاض بهما قلبه الكبير، فكانت فى فمه بشرا، وفى عينه دمعا، وفي يده جودا.

تلك الرحمة التى وسعت الجميع هى أبرز صفات الرسول ﷺ وهى التى ليتسابق الأبطال والعظماء إليها، فيردون عن هذا المدى، ويبقى رسول الله ﷺ المثل الكامل، والقدوة العظمى. وحقا كان كما قال عن نفسه «إنما أنا رحمة مهداة» وكما قال القرآن الكريم له :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

دليل العدل والتسامح

من شريعة الإسلام

أما شريعة الإسلام فحسبنا قول الله تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الممتحنة].

والخلط يقع دائما بين الصنفين المذكورين: الذين نهى الله عن توليهم لأنهم عادوا المسلمين وآذوهم وأعانوا عليهم، والذين رغب الله فى برهم والإقساط إليهم، لأنه يحب المقسطين.

وإذا كانت هاتان الآيتان نزلتا فى شأن المشركين، كما هو مبين فى أسباب نزول السورة -الممتحنة- فإن لأهل الكتاب منزلة خاصة فى اعتبار الإسلام، وخصوصا من كان له عهد مع المسلمين، فأنهم مأمورون أن يوفوا بالعهد ولا ينقضوا الميثاق.

قال تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾ [النحل].

وفى الحديث الشريف : «من قتل معاهدا لم يرح[1] رائحة الجنة، وإن

(١) يشم.

ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما»، والمعاهد يشمل من له عهد مؤقت بأمان ونحوه وهو المستأمن، ومن له عهد مؤبد وهو الذى عهده أوثق وأوكد، وهو الذمى.

موقف الإسلام من غير المسلمين :

من المعروف شرعا: أن أصحاب الأديان المخالفة للإسلام صنفان :

١- صنف هم أصحاب الديانات الوثنية أو الوضعية، مثل : المشركين عباد الأوثان، والمجوس عباد النار، والصابئين عباد الكواكب،

٢- وصنف هم أصحاب الديانات السماوية أو الكتابية، وهم الذين لهم دين سماوى فى الأصل، ولهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارى، وهم الذين يسميهم القرآن «أهل الكتاب» تلطفا بهم، وإيناسا لهم.

وهؤلاء الكتابيون لهم معاملة متميزة فى الإسلام، فقد أباح مؤاكلتهم واعتبر طعامهم حلالا طيبا، كما أباح مصاهرتهم والتزوج منهم، كما قال تعالى فى سورة المائدة :

قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ [المائدة].

والمصاهرة أحد الرابطين الأساسيين اللذين يربطان البشر بعضهم ببعض، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾ [الفرقان].

كما أن الزواج في نظر الإسلام يقوم على السكون والمودة والرحمة، وهى دعائم الحياة الزوجية فى القرآن :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم].

ومعنى زواج المسلم من كتابية: أن يكون أصهاره وأجداده وأولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم وأولاد أخوالهم من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم حقوق صلة الرحم وذوى القربى التى يفرضها الإسلام.

ولا نجد فى السماحة مع المخالف فى الدين أرحب ولا أعلى من هذا الأفق الذى وجدناه في شريعة الإسلام.

وثمت تقسيم آخر للمخالفين فى الدين، من حيث موقفهم من دولة الإسلام وأمة الإسلام، فهم إما محاربون، وإما مسالمون معاهدون.

فالمحاربون هم الذين يعادون المسلمين ويقاتلونهم، وهؤلاء لهم أحكامهم التى تنظم العلاقة بهم، وتفرض أخلاقا وآدابا معينة فى معاملتهم حتى فى حالة الحرب، فلا عدوان، ولا غدر، ولا تمثيل بجثة، ولا قطع لشجر، ولا هدم لبناء، ولا قتل لصبى ولا امرأة ولا شيخ، وإنما يقتل من يقاتل ... إلخ ماهو مقرر، ومفصل فى كتب «السير»، أو «الجهاد» فى الفقه الإسلامى.

والمسالمون أو المعاهدون، يوفى لهم بعهدهم، ويعطون حقهم من البر والقسطوالصلة.

ومن الخطل والخطر هنا : الخلط بين الصنفين على اعتبار أنهم جميعا كفار، لا يؤمنون برسالة محمد خاتم رسل الله ﷺ ، ولا يصدقون بالقرآن آخر كتب الله.

وقد فرق القرآن بين الصنفين تفريقا واضحا، فى آيتين كريمتين تعتبران دستورا محكما فى تحديد العلاقة بغير المسلمين، يقول تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الممتحنة].

والبر هو : الخير، والقسط : هو العدل، وقد نزلت هاتان الأيتان فى شأن المشركين، كما دلت على ذلك أسباب نزول السورة، فأهل الكتاب أولى بالبر والقسط.

ثم إن المعاهدين صنفان :

(أ) من لهم عهد مؤقت، وهؤلاء يتم إليهم عهدهم إلي مدتهم.

(ب) والثانى من لهم عهد دائم ومؤبد وهم الذين يسميهم المسلمون «أهل الذمة» بمعنى أن لهم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ وذمة جماعة المسلمين، وهم الذين قال فيهم الفقه الإسلامى: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، أى فى الجملة إلا ما اقتضته طبيعة الاختلاف الدينى.

وأهل الذمة يحملون «جنسية دار الإسلام» وبتعبير آخر : هم مواطنون في الدولة الإسلامية.

فليست عبارة «أهل الذمة» عبارة ذم أو تنقيص، بل هى عبارة توحى بوجوب الرعاية والوفاء، تدينا وامتثالا لشرع الله.

وإذا كان الإخوة المسيحيون يتأذون من هذا المصطلح، فليغير أو يحذف، فإن الله، لم يتعبدنا به، وقد حذف سيدنا عمر - رضى الله عنه - ماهو أهم

منه، وهو لفظ «الجزية»، رغم أنه مذكور في القرآن، وذلك استجابة لعرب بنى تغلب من النصارى، الذين أنفوا من هذا الاسم، وطلبوا أن يؤخذ منهم ما يؤخذ باسم الصدقة، وإن كان مضاعفا. فوافقهم عمر، ولم ير فى ذلك بأسا، وقال : هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم.

وهذا تنبيه من الفاروق على أصل مهم، وهو النظر إلي المقاصد والمعانى، لا إلي الألفاظ والمبانى، والاعتبار بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين، ومن هنا نقول : إنه لا ضرورة للتمسك بلفظ «الجزية» الذى يأنف منه النصارى فى مصر وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية، والذين امتزجوا بالمسلمين، فأصبحوا يكونون نسيجا قوميا واحدا، فيكفي أن يدفعوا «ضريبة» أو يشتركوا بأنفسهم فى الدفاع عن الأمة والوطن فتسقط عنهم.

فيجب المحافظة على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ومعابدهم، وجميع حرماتهم، واحترام عقائدهم وشعائرهم، والدفاع عنهم تجاه كل عدوان من الخارج وتجنب كل ما يوغر صدورهم، أو يؤذيهم فى أنفسهم أو أهليهم وذراريهم.

حتى إن القرآن ليرتفع بأدب الحوار مع أهل الكتاب إلي أفق رفيع، حين يقول :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت].

فإذا كان هناك طريقتان للحوار أو للجدال إحداهما حسنة، والأخرى أحسن منها، فالمطلوب هو الحوار بالتى هى أحسن.

ويركز القرآن هنا على ذكر مواضع الاتفاق بين المسلمين، وأهل الكتاب لا على نقاط التمايز والاختلاف :

﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت].

وأهل الذمة من أهل الكتاب لهم وضع خاص، والعرب منهم لهم وضع أخص، لاستعرابهم وذوبانهم فى أمة العرب، وتكلمهم بلغة القرآن، وتشربهم للثقافة الإسلامية، واشتراكهم فى المواريث الثقافية والحضارية للمسلمين بصورة أكبر من غيرهم، فهم مسلمون بالحضارة والثقافة، وإن كانوا مسيحيين بالعقيدة والطقوس.

والحقوق التى قررها الإسلام ليست مجرد حبر على ورق، بل هى حقوق مقدسة قررتها شريعة الله، فلا يملك أحد من الناس أن يبطلها، وهى حقوق تحوطها وتحرسها ضمانات متعددة : ضمانة العقيدة فى ضمير كل فرد مسلم، يتعبد بامتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وضمانة الضمير الإسلامى العام، الذي يتمثل فى المجتمع كله، وخصوصا الفقهاء والأصلاء من حراس الشريعة، والقضاة العدول الأقوياء، الذي رأينا منهم من حكم على الأمراء والخلفاء لحساب من ظلم من أهل الذمة.

وقد رأينا الإمام الأوزاعى يقف مع جماعة من أهل الذمة فى لبنان ضد الأمير العباسى قريب الخليفة.

وقد رأينا الإمام ابن تيمية يخاطب قائد التتار فى فكاك الأسرى عنده، فيعرض عليه أن يفك أسرى المسلمين وحدهم، فيأبى إلا أن يفرج عن أهل الذمة معهم.

أعلى درجات التسامح
عند المسلمين وحدهم

ثم إن التسامح الدينى والفكرى له درجات ومراتب:

فالدرجة الدنيا من التسامح : أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك، بحيث إذا أبي حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفى، أو غير ذلك من ألوان العقوبات، والاضطهادات، فتدع له حرية الاعتقاد، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التى تفرضها عليه عقيدته، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه، فهذه – وإن كان فيها شىء من التسامح – لا تخلو من التعصب، إذ ما معنى أن تسمح لي باعتناق عقيدة ما، ثم تمنعنى من التزام ما تفرضه علىّ العقيدة أمرا أو نهيا، إيجابيا أو تحريما ؟؟

والدرجة الوسطى من التسامح : أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب، ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو الانتهاء عن أمر يعتقد حرمته، فإذا كان اليهودى يعتقد حرمة العمل يوم السبت، فلا يجوز أن يكلف بعمل فى هذا اليوم، لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه.

وإذا كان النصرانى يعتقد بوجوب الذهاب إلي الكنيسة يوم الأحد، فلا يجوز أن يمنع من ذلك فى هذا اليوم(١).

والدرجة التى تعلو هذه فى التسامح : ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله فى دينهم أو مذهبهم، وإن كنت تعتقد أنه حرام فى دينك أو مذهبك.

---

(١) كثير من الدول الأوربية تضيق على المسلمين فلا يسمحون لهم باجازة يوم الجمعة لأداء صلاة الجمعة وليس ببعيد ما سنته فرنسا وبلجيكا وغيرها من الدول الأوربية بمنع المسلمات من لبس غطاء الرأس.

وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح.

فقد التزموا احترام كل ما يعتقد غير المسلم أنه حلال فى دينه، ووسعوا له فى ذلك، ولم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم، وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك، مراعاة لشريعة الدولة ودينها، ولا يتهموا بكثير من التعصب أو قليل، ذلك لأن الشىء الذى يحله دين من الأديان ليس فرضا على أتباعه أن يفعلوه.

فإذا كان دين النصرانى يحل له أكل الخنزير، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير، وفى لحوم البقر والغنم والطير متسع له.

ومثل ذلك الخمر، فإذا كان بعض الكتب المسيحية قد جاء بإباحتها، أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة كما قيل، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحى الخمر.

فلو أن الإسلام قال للذميين : دعوا شرب الخمر، وأكل الخنازير، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين، لم يكن عليهم فى ذلك أى حرج دينى، لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا فى دينهم منكرا، ولا أخلوا بواجب مقدس، ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين فى أمر يعتقدون حله، وقال للمسلمين : اتركوهم وما يدينون !

روح التسامح عند المسلمين

علي أن هناك شيئا آخر لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين، ويلزم بها القضاء، وتشرف على تنفيذها الحكومات.

ذلك هو «روح السماحة» التى تبدو فى حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الحوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهى الأمور التى تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغنى فيها قانون ولا قضاء، وهذه روح لا تكاد توجد فى غير المجتمع الإسلامى.

تتجلي هذه السماحة فى مثل قول القرآن فى شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان].

وفى ترغيب القرآن فى البر والإقساط إلى المخالفين لم يقاتلوا المسلمين فى الدين كما فى آية الممتحنة :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [الممتحنة].

وفي قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان].

ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين.

وفى قول القرآن يجيب عن شبهة بعض المسلمين فى مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المصرين :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾ [البقرة].

وقد روى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ومدون مذهبه : أن النبى ﷺ بعث إلي أهل مكة مالا لما قحطوا ليوزع على فقرائهم، هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه.

وروى أحمد والشيخان عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت أمى وهى مشركة، فى عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله، إن أمى قدمت وهى راغبة، أفأصلها ؟! قال : « نعم، صلِي أمك».

وتتجلى هذه السماحة كذلك فى معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب يهودا كانوا أو نصارى، فقد كان يزورهم ويكرمهم، ويحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم ويعطيهم.

وذكر ابن إسحاق فى السيرة : أن وفد نجران – وهم من النصارى – لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون فى مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم»، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

وعقب المجتهد ابن القيم على هذه القصة فى «الهدى النبوى» فذكر مما فيها من الفقه، (جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين ... وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفى مساجدهم أيضا، إذا كان ذلك عارضا، ولا يمكنون من اعتياد ذلك).

وروى أبو عبيد فى «الأموال» عن سعيد بن المسيب : أن رسول الله ﷺ تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهى تجرى عليهم.

وروى البخارى عن أنس : أن النبى ﷺ عاد يهوديا، وعرض عليه الإسلام، فأسلم، فخرج وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار».

وروى البخارى أيضا : أن النبى ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله، وقد كان فى وسعه أن يستقرض من أصحابه، وما كانوا ليضنوا عليه بشىء، ولكنه أراد أن يعلم أمته.

وقبل النبى ﷺ الهديا من غير المسلمين، واستعان فى سلمه وحربه بغير المسلمين، حيث ضمن ولاءهم له، ولم يخش منهم شرا ولا كيدا.

وتتجلى هذه السماحة كذلك فى معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين.

فعمر يأمر بصرف معاش دائم ليهودى وعياله من بيت مال المسلمين ثم يقول : قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة] ، وهذا من مساكين أهل الكتاب.

ويمر فى رحلته إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى فيأمر بمساعدة اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين.

وأصيب عُمر بضربة رجل من أهل الذمة - أبى لؤلؤة المجوسى - فلم يمنعه ذلك أن يوصى الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم».

وعبد الله بن عمرو يوصى غلامه أن يعطى جاره اليهودى من الأضحية، ويكرر الوصية مرة بعد مرة، حتى دهش الغلام وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودى ؟ قال ابن عمرو : إن النبى ﷺ قال : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهى نصرانية، فشيعها أصحاب رسول الله ﷺ. وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيبا من صدقة الفطر لرهبان النصارى ولا يرون فى ذلك حرجا، بل ذهب بعضهم - كعكرمة وابن سيرين والزهرى - إلى جواز إعطائهم من زكاة المال نفسها.

وروى ابن أبى شيبة عن جابر بن زيد : (أنه سئل عن الصدقة فبمن توضع ؟ فقال : فى أهل ملتكم من المسلمين، وأهل ذمتهم ...).

وذكر القاضى عياض فى ترتيب المدارك (قال : حديث الدارقطنى أن القاضى إسماعيل بن إسحاق دخل عليه الوزير عبدون بن صاعد النصرانى وزير الخليفة المعتضد بالله العباسى، فقام له القاضى ورحب به، فرأى إنكار الشهود لذلك، فلما خرج الوزير قال القاضى إسماعيل : قد علمت إنكاركم، وقد قال الله تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [الممتحنة]،

وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد وهذا من البر).

وتتجلى هذه السماحة بعد ذلك فى مواقف كثير من الأئمة والفقهاء فى الدفاع عن أهل الذمة، واعتبار أعراضهم وحرماتهم كحرمات المسلمين، وقد ذكرنا مثلا لذلك موقف الإمام الأوزاعى، والإمام بن تيمية.

ونكتفى هنا بكلمات نيرة للفقيه الأصولي المحقق شهاب الدين القرافى شارحا بها معنى البر الذى أمر الله به المسلمين فى شأنهم، فذكر من ذلك : (الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم – على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة – واحتمال أذيتهم فى الجوار – مع القدرة على إزالته – لطفا منا بهم، لا خوفا ولا طمعا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، فى دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم ...) إلخ.

الأساس الفكرى لتسامح المسلمين

وأساس النظرة المتسامحة التى تسود المسلمين فى معاملة مخالفيهم فى الدين يرجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التى غرسها الإسلام فى عقول المسلمين وقلوبهم، وأهمها :

١- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾ [الإسراء]

وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية ما ذكرناه من قبل، وهو ما رواه البخارى عن جابر بن عبدالله : أن جنازة مرت على النبى ﷺ فقام لها واقفا، فقيل له : يا رسول الله إنها جنازة يهودى ! فقال : «أليست نفسا؟!». بلى ولكل نفس فى الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل !

٢- اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع :

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف]

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ [هود].

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا مافيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يوما أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس].

٣- إن المسلم ليس مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالتهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله فى يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه فى يوم الدين، قال تعالى :

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾ [الحج].

وقال يخاطب رسوله فى شأن أهل الكتاب :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى].

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد فى نفسه أى أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكفار، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٤- إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة].

وقال ﷺ : «دعوة المظلوم – وإن كان كافراً – ليس دونها حجاب».

إن سماحة الإسلام مع غير المسلمين سماحة لم يعرف التاريخ لها مثيلا، وخصوصا إذا كانوا أهل كتاب، وبالأخص إذا كانوا مواطنين فى دار الإسلام، ولا سيما إذا استعربوا وتكلموا بلغة القرآن.

و صايا نبوية

بأقباط مصر خا صة

وأما أقباط مصر فلهم شأن خاص ومنزلة متميزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصة، يعيها عقل كل مسلم، ويضعها فى السويداء من قلبه.

فقد روت أم المؤمنين أم سلمة -رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال : «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله».

وفي حديث آخر عن أبي عبد الرحمن الحبلى - عبدالله بن يزيد - وعمرو بن حريث أن رسول الله ﷺ قال : « ... فاستوصوا بهم خيرا، فإنهم قوة لكم، وبلاغ إلي عدوكم بإذن الله» يعنى قبط مصر.

وقد صدق الواقع التاريخى ما نبأ به الرسول ﷺ، فقد رحب الأقباط بالمسلمين الفاتحين، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط فى دين الله أفواجا، حتى إن بعض ولاة بنى أمية فرض الجزية على من أسلم منهم، لكثرة من اعتنق الإسلام، وغدت مصر بوابة الإسلام إلى إفريقيا كلها، وغدا أهلها عدة وأعوانا فى سبيل الله.

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما».

وفى رواية : «إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما». أو قال : « ذمة وصهرا».

قال العلماء : الرحم التى لهم : كون هاجر أم إسماعيل - عليه السلام - منهم، والصهر : كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم.

ولا غرو أن ذكر الإمام النووى هذا الحديث فى كتابه: «رياض الصالحين» فى باب : «بر الوالدين وصلة الأرحام» إشارة إلي هذه الرحم التى أمر الله ورسوله بها أن توصل بين المسلمين وبين أهل مصر، حتى قبل أن يسلموا .

وعن كعب بن مالك الأنصارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم دما ورحما»، وفى رواية : «إن لهم ذمة ورحما» يعنى : أن أم إسماعيل منهم.

والرسول يجعل للقبط هنا من الحقوق أكثر مما لغيرهم، فلهم الذمة أى عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين، وهو عهد جدير أن يرعى ويصان. ولهم رحم ودم وقرابة ليست لغيرهم، فقد كانت هاجر أم إسماعيل أبى العرب المستعربة منهم، بالإضافة إلي مارية القبطية التى أنجب منها عليه الصلاة والسلام ابنه إبراهيم.

العدل والتسامح

فى تاريخ المسلمين

أما تاريخ المسلمين فى معاملة غير المسلمين، فلم تر البشرية مثله نصاعة وإشرافا، إنه صحائف رائعة من التسامح الفذ المنقطع النظير بين المؤمنين بالأيديولوجيات دينية أو علمانية مما جعل الشعوب المسيحية وغيرها ترحب بالحكم الإسلامى منفذا لها من تعصب حكامها الذين كانوا فى بعض الأحيان على دينها، ولكن يخالفونها فى المذهب.

ولن أنقل هنا كلام أحد من المسلمين، وأكتفى بما سجله المؤرخون الباحثون من غير المسلمين.

يذكر لنا المؤرخ «لودفيج» فى كتابه « النيل - حياة نهر» كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامى - بقيادة عمرو بن العاص - استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين، وكيف كان ترحيبهم بالغا حد الحماسة.

ويقول لودفيج: «إنه ما عدا فرض الجزية على المسيحى فإن عمرا لم يفرق فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين بل إنه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعا، ولإقامة شعائرها وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، مساواة شملت كل حق لهم وكل واجب عليهم، بما فى ذلك وظائف الدولة، بغض النظر عن الجنس أو الدين».

ويقول «جيروم وجان تارو» : «إن فضيلة التسامح التى كانت أزهى السمات الخلقية فى العرب، والتى ندر أن تتوافر لغيرهم فى جميع الأزمان، هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيرا ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطرى وذوقهم الفنى ونزعاتهم : لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح».

لم يعرف التاريخ فاتحين
متسامحين مثل العرب

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسى «جوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب» متحدثا عن عدل الفاتحين المسلمين وسماحتهم: «كان يمكن أن تُعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم ... ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون – الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة – أن النظم والديانات ليست مما يفرض قسرا فعاملوا كما رأينا – أهل سوريا ومصر وأسبانيا وكل قُطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقا، فى مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا سمحا مثل دينهم».

وينقل عن «جوتييه» فى كتابه « أخلاق المسلمين وعاداتهم» : «لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية فضيلة المسامحة لم تكن تتوقع من أناس يحملون دينا جديدا. وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد، أن يطفئ بالدماء دينا منافسا لديه.

وقد جاءنا العالم «متز» فى باب التسامح الإسلامى بتفاصيل أشد غرابة من هذه . قال : إن من أعظم بواعث الاستغربا كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأسر فى الدول الإسلامية – وقد شوهد المسلم فى بلاده يحكم عليه النصارى، وحدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب، وكان على القواد – حماة الدين – أن يقبلوا أيدى الوزير، وينفذوا أمره هذا، والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى».

تسامح في كل العهود
ومن كل الأجناس الإسلامية

ولم يكن التسامح مقصورا على عهد الراشدين أو المسلمين الأولين أو جنس العرب، كما يظن ذلك بعض الناس، بل بقى هذا التسامح صفة أصيلة ملازمة للمجتمع المسلم، وللحكم الإسلامى فى كل عصر وفى كل مكان، أيا كان الحاكمون وكان المحكومون، حتى فى أشد العصور اشتهارا بالعصبية الدينية، بل كانت الدولة الإسلامية هى الملاذ الذى يلجأ إليه المضطهدون من أى دين، فيجدون فيها التسامح والأمان والاطمئنان.

يقولن « توماس أرنولد» فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام » :

«وجدت أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر».

ويقول أيضا : «حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية».

ويقول «ريتشارد ستيبز» من أبناء القرن السادس عشر :

«على الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب ... فقد سمحوا للمسيحيين جميعا : للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية، وفى أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق - بدليل إثنى عشر عاما قضيتها فى أسبانيا - أننا لا نُرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا فى خطر على حياتنا

وأحفادنا». وهذا ما جعل بطريك أنطاكية واسمه « مكاريوس» يقول : أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية، ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أو يهودا أو سامرة».

والعجيب أن يتم هذا التسامح فى الوقت الذى كان المسلمون يبادون من الأندلس، بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون، ينشرون العلم والحضارة، ويهدون أوروبا إلي طريق النور، فى زمن لم تكن ترى فيه الضوء إلا من مثل سم الخياط، وظل هذا التسامح ساريا فى كل الديار الإسلامية، ومع كل الطوائف والأقليات، ما دام الشرع الإسلامى هو الذى يحكم ويسود.

حتى اليهود الذين يتصرفون كثيرا تصرفات تثير مواطنيهم عليهم، وتوقد شعلة الكراهية لهم، وخاصة حين يدبرون المكايد خفية، أو ينشرون الفساد جهرة.. حتى هؤلاء اليهود عاشوا فى المجتمع الإسلامى آمن ما يكونون على أنفسهم ومعابدهم وأعراضهم وأموالهم التى لم يتورعوا عن استخدامها فى الربا المحرم عند المسلمين.

وثيقة تاريخية تبين
مدى التسامح مع اليهود

وأكتفى هنا بذكر وثيقة تاريخية تبين لنا كيف يعامل الحكم الإسلامى الأقليات ولو كانت يهودية.

وهذه هى الوثيقة : نص الفرمان (الظهير) الذي نشره السلطان محمد بن عبدالله سلطان المغرب فى ٥ فبراير سنة ١٨٦٤:

«بسم الله الرحمن الرحيم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الأحكام، حتى لا يلحق أحد منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يُضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وألا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة.

ونحن لا نوافق عليه، لا فى حقهم ولا فى حق غيرهم، ولا نرضاه، لأن الناس كلهم عندنا فى الحق سواء، ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه، فإنا نعاقبه بحول الله، وهذا الأمر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا، ومعروفا محررا، لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا فى حق من يريد ظلمهم وتشديدا، ليزيد اليهود أمنا إلى أمنهم، ومن يريد التعدى عليهم خوفا إلي خوفهم. صدر به أمرنا المعتز بالله فى السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ١٢٨٠ ثمانين ومائتين وألف».

وكفى بهذه الوثيقة وحدها ردا على الأفاكين، الذين يثيرون العجاج، ويفتعلون الضجيج، بغير مسوغ ولا برهان.

ما سر هذه الضجة حول الأقليات ؟

(ز) وليت شعرى إذا كان هذا هو موقف الإسلام الواضح المبين فى شريعته وفى تاريخه، وهو البر والإقساط والتسامح مع غير المسلمين، فما سر هذه الضجة حول «الأقليات» ؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الذى يبديه جماعة من غير المسلمين كلما ذكر الحكم الإسلامى، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلي نهج الإسلام وشرع الإسلام ؟

والجواب : إن هذا التوتر لم يتبع من الداخل، وإنما جاء من الخارج، جاء من الغرب الذى شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة، ولم يرفع يده عنها بعد، والعجب أنه شنها باسم المسيح، رسول المحبة والسلام، والمسيح منها ومن أهلها براء.

ولا زال الغرب يكيد للمنطقة وأهلها، متذرعا إلي ذلك بشتى الذرائع المختلفة، ومنها مسألة الأقليات.

إن السياسة التى اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هى استخدام مسألة الأقليات المسيحية فى الشرق لإثارة الفتن والقلاقل التى تخدم أغراضه دائما، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين.

ويصف المؤرخ «ليدوفيك دى كونتش» هذه السياسة فيقول :

«كان الغرب يعمل جاهدا على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين فى نفوس المسيحيين يتلقونها خلفا عن سلف، ويرضعها الطفل من شعور أمه، كما يرضع اللبن من ثديها، فترى فى كيانه مسرى الدم فى عروقه، وينشأ على عقيدة تفضى على العلاقة بين المسيحى وبين المسلم إلى الأبد».

وفى سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامى، الذى لم تعرف الإنسانية له نظيرا، متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع فى بعض البلاد وبعض الأزمان، نتيجة لظروف خاصة تحدث فى كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا.

من هذه الظروف أن التسامح الإسلامى هيأ للكثير من أهل الذمة مراكز قوية فى النواحى المالية والإدارية، فلم يحسنوا معاملة المسلمين، بل أظهروا التسلط والتعنت والجبروت.

وفى هذا يقول «متز» : وكانت الحركات التى يُقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولا إلي محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين».

ويقول أيضا: «إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر - يعنى فى القرون الأولى - نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط».

ومن هذه الظروف أن بعض النصارى كانوا يبدون ارتياحا إذا انتصر الروم النصارى على المسلمين، فيؤدى ذلك إلى هياج العوام عليهم.

ولا ننكر أن هناك حكاما ظلموا أهل الذمة أو تشددوا عليهم، ولكن مثل هذا يعتبر شذوذا عن القاعدة العامة في التسامح الإسلامى مع غير المسلمين.

وفى الغالب أن هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين قبل اليهود والنصارى، فإن الظالم لا يقف ظلمه عند حد.

بل إن كثيرا من ظُلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة، رعاية لذمتهم، على حين يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم، حتى وجدنا الشيخ الدردير علامة المالكية، وشيخ علماء عصره فى مصر، يذكر عن أمراء زمانه : أنهم أعزوا أهل الذمة ورفعوهم على المسلمين، حتى يقول : «ويا ليت المسلمين عندهم كمعشار أهل الذمة ! وترى المسلمين كثيرا ما يقولون : ليت الأمراء

يضربون علينا الجزية كالنصارى، واليهود، ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم!

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

ولكن الرجاء معقود بعقلاء المسيحين الذين يدركون كيد الغرب ونواياه الشريرة التى لم تشرب روح المسيحية قط، حتى يوم غزت هذا الشرق باسم المسيح، وتحت عنوان الصليب.

فإن كان المسيحيون وغيرهم من الأقليات يخافون سيادة الإسلام، فلا محل لهذا الخوف، وقد أمِنُوا فى ظله قرونا طوالا، وإن كان بينهم من يحقدون على الإسلام، ويكرهون سيادته، فهذا مالا حيلة لنا فيه، ونسأل الله أن يطهر قلوبهم وقلوبنا من الضغن والسخيمة.

كلمات نيرة للمستشار البشرى :

ويسرنى أن أنقل هنا كلمات نيرة للمفكر المسلم المستشار طارق البشرى من مقال له حول «الفتنة الطائفية» فى مصر، يقول حفظه الله :

«من نقاط التماس في العلاقة بين المسلمين والأقباط موضوع المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وفى هذه المسألة هناك أمور يجب أن تجلى بدقة ووضوح، فإن تطبيق الشريعة الإسلامية هدف يطمح إليه كثير من المواطنين، وهو هدف تسعى إليه الحركات السياسية الإسلامية، وهو حكم فى الدستور، حكم نص أولا على أن دين الدولة هو الإسلام، ثم ارتقى بالنص إلي اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا للتشريع، ثم ارتقى إلى اعتبارها المصدر الرئيسى، وحتى الآن لم يجد هذا الحكم مجالا له فى التطبيق.

وأن ما يشيع من قلق لدى الأقباط فى هذه النقطة يتعين مواجهته من

زاويتين، فمن الزاوية الأولى، من حق الأقباط كمواطنين أن يؤمنوا على مركزهم القانونى وحقوقهم ومستقبلهم، وأن تُبسط وجهة النظر الإسلامية فى ذلك. وأن تجرى التفرقة الدقيقة بين أحكام الشريعة الإسلامية من حيث هى أحكام ثابتة بالقرآن والسنة الصحيحة، وتمثل وضعا إلهيا ثابتا على مدى الزمان، وبين الآراء الفقهية الاجتهادية التى يُؤخذ منها ويترك، ويمكن أن تتعدل بمراعاة تغير الزمان والمكان، وهذه النقطة مجال سعى فكرى وفقهى دؤوب ومخلص ومثمر، ومن حق الجميع بموجب المواطنة أن يتحاوروا فى هذه الأحكام التطبيقية، لنصل إلى الصيغة التى تستوعب كل إيجابيات تاريخنا ومنجزاته. ومن أهم هذه المنجزات إقرار المساواة بين المصريين جميعا.

وبعد الإقرار بهذا الجانب وضمانه، لا تقوم، «حجة قبطية» فى وجه تطبيق الشريعة الإسلامية، إلا أن تقوم على أساس طائفى ضيق يُعلى المصلة الخاصة على غيرها، وأى دعوة لأية جماعة تتقلص فى إطار مصلحة خاصة لها لا تراعى الأوضاع العامة، يتعين أن تواجه بما يمليه الصالح العام، وحق الأغلبية فى التقرير مع ضمان المساواة والمشاركة فى كل الأحوال.

ويتعين هنا الإشارة إلى أمرين أساسين :

الأمر الأول : أن مواطنا لا يضمن لمواطن آخر إلا حقه فى المساواة والمشاركة، وأن أى مواطن لا يحق له أن يطالب بأكثر من المساواة والمشاركة، أما ما دون ذلك من الأمور التى تتعلق بنظم الحكم والاقتصاد والسياسات فهى أمور شائعة بين المواطنين.

الأمر الثانى : أن المطالبة بالنظام الإسلامى كانت دائما وما تزال تقوم فى مواجهة حركة التغريب فى المجتمع، وهى لم تقم قط فى مواجهة الأقباط، ومبلغ علمى أن الأقباط كمواطنين مصريين وككنيسة ومذهب، عانوا من

التغريب مثل ما عانى إخوانهم المسلمون، وأن من يرفض النظام القانونى الإسلامى لا يرفضه ترجيحا لنظام قانونى أكثر اتصالا بالبيئة المصرية، وأكثر ارتباطا بتاريخ الشعب المصرى وتراثه، ولكنه يجرى ترجيحا لنظم قانونية وافدة من الغرب، ومع تقرير المساواة وضمانها لا وجه لترجيح نظام وافد بالنسبة للجميع، على نظام موروث، عاش فى البيئة قرونا وتفاعل مع مكوناتها واستوعب ما استطاع من أعرافها وله اتصال دينى بعقيدة الأغلبية.

وينبغى الحذر من مقولة : إن أمن القبطى وضمان وجوده السياسى والاجتماعى، مرتبط بإضعاف إسلامية المسلم ! لأن وضع المسألة على هذا النحو - حسبما تؤثر بعض الأقلام العلمانية أن تضعها - لن يفضى إلا إلى خداع عقائدى، ثم إن إضعاف الإسلام فى مصر لن يتم لحساب الأقباط، إنما هو يتم فى الماضى والحاضر والمستقبل لحساب الحضارة الغربية، التى تكتسح قبطية القبطى، فيما تكتسح من ثوابت هذا البلد.

إن للمسلمين والقبط معا هدفا كبيرا فى الدفاع عن ثوابت عقائدهم وجذورها فى هذا البلد، ضد غوائل الحضارات الوافدة، وهم يواجهون مخاطر واحدة وعدوا مشتركا واحدا، واجهوه معا فى السياسة والاقتصاد، ويواجهونه معا فى الفكر والحضارة.

وفى ظنى أن بعض العلمانيين ينحون نحوا ضارا عندما يعملون على استغلال وضع غير المسلمين ويستثمرون قلقهم ليواجهوا بهم الحركات الإسلامية، بدل أن يواجهوا معركتهم الفكرية بأنفسهم، وبدل أن يعملوا من موقع المسئولية إزاء التكوين الشامل للجماعة الوطنية على تنمية أواصر التفاهم بين الفكرية الإسلامية وغير المسلمين. فنحن جميعا في مركب واحد، ولن يستطيع فريق منا أن ينفي الآخر، وأن دعم أواصر الجامعة الوطنية مهمة كفاحية يتعين علينا جميعا أن نشارك فيها، وأن ييسر كل فريق على غيره

إمكانات توثيقها بدلا من استغلال سلبيات كل فريق للتشنيع عليه وإفساد طريقه لمعالجتها والوقيعة بين الجماعات الوطنية.

وإن استخراج مبدأ المساواة من الشريعة الإسلامية يكفل ضمانة لا يوفرها ولم يوفرها الفكر العلمانى الوافد .. بدليل التقلصات التى ما تزال تعانى منها، ومن جهة أخرى فإن لأقباط مصر خاصة أن يروا فى فقه الشريعة الإسلامية معنى من معانى قوميتهم، وقد استوعب هذا الفقه عادات وأعرافا وضمها إلي رحابه فى المعاملات والعلاقات، وتأثر مثقفوا الكنيسة القبطية بصياغات فقه الشريعة على نحو ما نرى فى كتابات «ابن العسال» الفقيه القبطى فى القرن الثالث عشر الميلادى، وليس أضمن للمساواة وأفعل من أن يرى المسلم فى تحقيقها إيفاء منه بواجب لدينه عليه، بدل أن توضع كما لو كانت منافيه له».

الفهرس

تابع الفهرس